الطريق إلى الميدان

قصص قصيرة



جمال الجزيرى



غابت الترعة وغابت الفتاة التي تغسل شعرها عن عيوننا: ربما كان رجال الشرطة اقتادوها معهم. جفت أغنية السلام من على شفاهنا. حاولنا أن نبلل ألسنتنا بالماء. كان يبدو علينا أننا سافرنا آلاف الأميال، بالرغم من أن عدّاد سرعة السيارة لم يُظهِر إلا آلافا قليلة من الأمتار.

لوحة الغلاف: الفنان رينيه ماجريت

تصميم الغلاف: مرفت عنتر النحاس

دار التلاقي للكتاب
تعنى بنشر الثقافة الرفيعة والإبداع المتميز

المدير العام : د. إسرار الجراح
مدير النشر : السماح عبد الله
جمهورية مصر العربية – الجيزة – العجوزة
٥٤ شارع شاهين – الطابق الأرضي – شقة ٧

Email : altalaqi22@yahoo.com

اســم العمل : الطريق إلى الميدان
المــؤلــف : جمال الجزيري
النــــوع : قصص
الطـــبعة : الأولـى
تاريخ النشر : القاهرة ، أغسطس ٢٠١١
تصميم الغلاف والإخراج الفني : سين عين
عدد الصفحات : ١١٢ صفحة
النــاشــر : دار التلاقي
عدد النســخ : ١٠٠٠ نسخة
مقاس الكتاب : متوسط (١٤ X ٢٠)
رقــم الإيداع : ٤٦٢٤ / ٢٠١٢

الطريقُ إلى الميدان

قصص قصيرة

جمال الجزيري

دراسة

د . محمود الضبع

إهداء

إلى ميدان التحرير وبصمته التي ستظل عالقة بذاكرة التـــاريخ إلى الأبد

إليه وهو يرسم تاريخا جديدا ويحرّر الروح الإنسانية ويطلقها لتعيد تشكيل ملامح الوطن

كُتبت قصص هذه المجموعة في الفترة ٢٠٠٩-٢٠١٠

جهاز مسح الرأس

"كيف تنمّي قدراتِكَ العقليَّةَ؟"، هذا هو السؤال الذي طرحوه علينا اليوم. وقف السائل ينتظر إجابة من أي أحد من الجماهير المحشودة في الميدان. أخذت شفتاي تأكلانني في تأنٍ. عندما لمح صديقي الكلمات الخارقة المصلوبة على شفتيّ، أمسك يدي بقوةٍ وعنفٍ وهو يبلّل شفتيّ بزيت أو مرهم أحسستُه لَزِجًا. طلب مني أن أفكر في الألف جنيه التي دفعتُها بالأمس عندما أجبتُ على سؤال مماثل: "كيف توظِّفُ الرمزَ في النَّصِّ الأدبي؟" عندما اندمجتُ في الإجابة بناء على خبرتي وقراءتي، سحبني مختصو الجهاز إلى صالة الحَجْرِ الرئيسية وأوقفوني أمام جهاز مَسْحِ الرَّأسِ. لفّوا شريطا أشْبَهَ بشريط جهاز قياس ضغط الدَّم حول رأسي، ثم أدخلوا بعض البيانات على الجهاز لم أتمكن من التقاط شيئا منها، إذ يبدو أن إدخال هذه البيانات صار روتينا بالنسبة لهم. تَوَرَّدَتْ خدودُهم عندما ظهرتْ نتيجةُ المسح على الشاشة لتقول إن درجة حرارة ذكائي ٣٩ درجة. سحبوا بطاقة الصرف الآلي من جيبي وأدخلوها في فتحة أخرى بنفس الجهاز ليسحبوا منها ألف جنيه. الغريب أنهم يعرفون دائما كلمة السر بالرغم من أنني أغيرها كثيرا. ازداد تورُّدُ خدودهم عندما لم يجدوا في رصيدي ما يكفي. اقتادوني إلى قاعة المطبعة الرئيسية لأقضي بما لم يتبقَّ من رصيدي في الرقابة على أربعة كتب بمعدّل مائة جنيه للكتاب. وكان عليّ أن أملأ الكتب بالخطوط

الحمراء، فإن لم يجدوا هذه الخطوط الحمراء تملأ كتابا سأكون مدينا بألف جنيه مقابل كل كتاب. وكانت صدمتي لا حد لها عندما وجدتُ الكتب عبارة عن كتاب لي وثلاثة كتب لأصدقائي. و لم أتمكن من أن أرسل رسائل بريد إلكتروني لأصدقائي من على جهاز الجامع الأكبر إذ أن كاميرات المراقبة كانت تعلن عن نفسها في استفزاز، ولو تم اكتشاف "فعلتي" سأكون مدينا بألف جنيه أخرى مقابل كل رسالة. كما أن محاولة تشغيل الماسنجر فشلت فشلا ذريعا إذ ظهرت لي رسالة لعينة تقول: "لست مديرا أو مسئولا ولا تملك صلاحيات التحدث أو الاتصال". لم يكن أمامي إلا أن أنثر الخطوطَ الحمراءَ في كل مكان. تمهَّلْتُ قليلا. وسرعان ما طرأتْ على رأسي فكرةٌ حمراءُ، فأخذت أضع الخطوط الحمراء تحت العبارات العادية جدا التي لا يوجد بها أي رمز أو تلميح، فقط عبارات بلا رُتْبَة رمزية تملأ الفراغات فيما بين الرموز، علّها تكون فضيحة مدوية لهم عندما ينشرون الكتب بدونها ويتركون العبارات الأخرى الأكثر خطورة حسب مقاييسهم.

ازداد ضغط صديقي عندما رأى لساني ينتفض في فمي ويهمّ أن يهبّ خارجا ليطلق حركته على رَسْلِهَا. فكّرتُ في رصيدي الذي نفد وفي الخطوط الحمراء وفي عبث استنفاد كل طاقتي في مسرحية لا تطهّرُني. والغريب أنها كانت ذات طابع كوميدي خالص. أخذت أفكر في طريقة لأفرّغ بها شحنة الحركة التي تنفجر انفجارا ساكنا في لساني، فرفعت يدي في تلقائية مصطنعة: "أشترك في النادي الرياضي التابع لوزارة الشباب أو أعمل بدأبٍ أمام جهاز الجامع الأكبر وأطهّر الكتب من الفيروسات". صفّق

لي السائل وفي الحال وصلت رسالة على هاتفي تقول لي إنه تمت إضافة ألفين جنيه إلى رصيدي. فنزلت دمعة على خدي سرعان ما مسحها صديقي كي لا تلتقطها الكاميرات الدوّارة المسلّطة علينا. لكن رسالة أخرى وصلتني لتعكّر ما تبقى لديّ من صفو: "لقد تم اختيارك لتمثيل نادي شباب الهيئة في دورة الألعاب العقلية، كما تم اختيارك رقيبا ثانيا بمبنى الجامع الأكبر". فلم أتمالك ضحكة ساخرة ناوشتْ جسمي كله إلى أن قهرت كل مقاومتي وخرجت إلى أعتاب فمي. لكنني استعدتُ حِيَلي بسرعة لم أعهدها في نفسي وقلبتُ السخرية إلى صفاء يوحي للسامع بالسعادة والانتشاء ولحقتها هتافات النصر والفرح لتصلني رسائل متزايدة بعدد نبرات صوتي وتقلباتها تفيدني بزيادة رصيدي. وبعد أن هدأت العيون المتطلعة وانزاحت عنّي لتعود إلى السائل، انسحبتُ في هدوء إلى ماكينة الصرف الآلي لأسحب كل ما وصل إلى حسابي من رصيد.

يونيو ٢٠٠٩

احتمالات الملك والكتابة

مَلَلْتُ ومَلّ. لم يستطعْ المحقّقُ إلا أن يحصلَ على الكلمات المطبوعة في ديواني، و لم أستطعْ أن أقلّلَ غباءَه ليقرأ كلماتي بعيون غير عيون محاكم التفتيش التي تلقّت بلاغا من أحدهم ضدي. عندما بلغ به الملَلُ مداه، توقّفَ قليلا وهو يَشْرُدُ في اتجاه بعيدا عنّي، ثم استدار والتفتَ إليّ فجأة قائلا: "دعنا نتسلى قليلا". وأخرج عملة معدنية من جيبه، قائلا: "مَلِكٌ أم كِتَابَة؟". وبما أنني استغربتُ موقفه، أخذتُ أفكّرُ في سؤاله وما يقصده بهذا اللعب المفاجئ. تدبرتُ كلمات سؤاله، وشعرتُ بحيرة بالغة، إذ أنني أمام خيارين لا يقلُّ أحدُهما صعوبة عن الآخر: إن اخترتُ المَلِكَ خسرتُ قضيتي وخسرت نفسي أمام نفسي، وإن اخترت الكتابة خسرت قضية أخرى لكنني على الأقل سأكون صادقا مع نفسي. "ملكٌ أم كتابة؟" استغربت صيغة السؤال من جديد، فمن جهة هو "يرفع" الملك و"يجرُّ" الكتابة. نظرت إلى صورة السيد الرئيس خلفه في تمعُّنٍ، وهي صورة أُخذت له قديما في شبابه، ثم استجمعتُ جراةً حاول أن يسرّبها من أعضائي طوال كل هذه الساعات من التحقيق، ونظرتُ إليه دون أن أُخفضَ عينيّ وأجبرتُه حرجا أو ضيقا أو تأففا على أن يُخفّضَ عينيه، ثم قلتُ له: "كتابةٌ"، محاولا أن "أرفع" الكتابة بالرغم من أن السياقَ ينصبها، وأنا لا أدري عن الرهان شيئا، لكن

بما أنها لعبة عبثية سأحاول أن أحتمي بالتعقّلِ كي لا يجرُّني العبثُ إلى طر يق مسدودة أو طريق ضياع.

ابتسم ابتسامة ماكرة عندما سمع إجابتي وكأنه ينذرني، ثم ما لبث أن أمسك بديواني وألقى به في عرض الحائط كأنه ينتقم مني أو كأنه برميه هذا يرميني أنا في موجةِ سِحْرٍ أسودَ لا تنقطعُ.

"إذا تُصِرُّ على موقفك"، قالها لي. لم أرد عليه، إذ أنني لا أعرف ما هو هذا الموقف أصلا، فكل ما فعلتُه هو أنني نشرتُ ديوانا من الشعر وعلى نفقتي الخاصة، بعد أن انتظرتْ كتبي الأخرى في الهيئات الحكومية سنوات لا أعرف عددها دون أن تشمَّ رائحةَ المطبعة. وكالعادة، فَهِمَ سكوتي أو صمتي على أنه رضا وموافقةٌ على ما يدسُّه في سؤاله. سخرتُ في داخلي من هذا التأويل الجاهز من جانبه، فالصَّمْتُ لغةٌ لا تقل اكتمالا عن الكلام وإن كانت أكثر إيحاء منه، فلا صمتي يعني موافقتي ولا كلامي يؤخذ دائما على ما تعنيه الكلمات المؤلِّفُ منها.

بعد أن يئس منّي أو من أن ينتزع إجابة شافية وافية تُمَكِّنُهُ منّي، تركني كأنني غير موجود وجلس على كرسيه ثم وضع رأسه على المكتب مغطيا وجهه بيديه بعد أن أغمض عينيه. سحب نفسا عميقا كأنه يحاول أن يُدخل هواءً يطردني من رئتيه. بعدها رفع رأسه دون أن يلتفت إليّ وأخرج العملة المعدنية من جيبه وأخذ يقلِّبها في الهواء، وفي كل مرة كانت الكتابة تخرج له كأنها تغيظه أو تمكر به أو تتحالف على أعصابه، فيقذف بها بعيد ويلتفت

إليّ. ألتفتُ إليه مبتسما كأنني أستخدم ضده الخبث نفسه، وقلتُ له: "لماذا لا تطبعون صورة السيد الرئيس على الوجه الآخر للعملة بدلا من الملك". ابتسم، فيبدو أن الفكرة راقت له وأخذ يقلِّب هذا الاقتراح في رأسه علّه يفوز بترقية، ثم باغتني قائلا: "الملك على العملة من قديم الزمان، ألمْ تسمع عن اكتشاف العملات في المتحف المصري؟ كان الفراعنة يطبعون صورة الملك على العملات المعدنية، لذلك حفاظا على تاريخنا سأقترح طباعة صورة الملك على وجهٍ وصورة السيد الرئيس على وجه، وبذلك سأوفِّرُ عليك عدم الاختيار، فلن تختار كتابة تقذف بك في ظلام السجن أو المعتقل".

تمهَّلَ قليلا. عاود الجلوس على كرسيه. وضع يده على رأسه كأنه يغمض عينيه ليتغيَّر المنظر عندما يفتحهما. وعندما فتح عينيه، وضع يده في جيبه من جديد وأخرج العملة المعدنية وأخذ يلقيها في الهواء، محاولا أن تظهر صورة الملك. لكن الكتابة كانت تكيد له وتلحُّ على الظهور في كل مرة. وبالرغم من غيظه الشديد، أحسَّ بقدْرٍ من الارتياح، أو بأن لعبته أخرجته من حالته المزاجية السيئة التي تكيل السوء لي، ونظر إليّ بطرف عينيه، ثم رفعهما تدريجيا إلى أن سلَّطهما عليّ وباغتني بسؤال آخر: "إذا كان عليك أن تنتمي إلى حزب، هل ستنتمي للحزب الحاكم أم للمعارضة؟" وبدون أن أجعله يستمتع بحيرتي، قلت له على الفور سأكون على الحياد أو عدم الانحياز. فقهقه ساخرا من عبارة عدم الانحياز، قائلا: "إما مع أو ضد". أحببت أن أغيظه مرة أخرى، فنظرت إليه مبتسما كأنني طفل يتخابث على

الكبار قائلا: "هذه الثنائيات عفا عليها الزمن، أَوْجُهُ الاحتمال لا حصر لها: إما أو أو أو ... إلى ما لا نهاية. فلتحيَ 'الأوأوة'". انفجر غاضبا من لمحتي الساخرة ونادى على الحارس أو شخص آخر لا أعرف لقبه وأمره بأن يقتادني إلى محبسي، ممزقا أوراق الديوان أمامي. وبينما كنتُ أتظاهر بالخضوع، نظرتُ إليه، فرأيت نظرة انكسار في عينيه وكأنه يندب حظَّه أو حظِّي، لكنني كنت سعيدا، على الأقل كنت منسجما مع نفسي. انتظمتْ خطواتي وأنا في طريقي إلى محبسي كأنني أجهز نفسي للقراءة أو الكتابة ونظرة الانكسار في عينيه لا تفارقني أبدا، كأنها نقطة نور أو علامة ترشدني على الطريق.

عندما رأى الابتسامة والبِشْرَ في عينيّ وعلى وجهي، نادى اسمي، فتوقَّفَ الحارس وتوقَّفْتُ، وأشار إليَّ بالرجوع صارفا الحارس. ظننتُه سيُكْمِلُ قصة صورة الملك وصورة السيد الرئيس على وجهي العملة بما يقطع الطريق على انتشائي بخبثي ساعة اقتراحي. لكنني وجدته تحول إلى موقف المبتسم كأننا صديقان لم نلتقِ منذ فترة طويلة. طلب مني الجلوس، فجلست في حذرٍ أو توجُّسٍ أو ريبةٍ وأنا أعدِّد احتمالات الأسباب وراء تصرفه.

لكنني وجدت سؤالا يندفع من فمي دون أن أستطيع التحكُّمَ فيه: "ما الذي تريده مني الآن وقد مزَّقتَ ديواني ولا توجد نسخة واحدة في السوق بعد أن نفدت كلُّ نُسَخِه؟" ضحك عاليا من كُلِّ قلبه وكأنه شخصٌ غير الشخص الذي كان يفتِّشُ تحت جلدي في الساعات الماضية. استغربت من ضحكاته المتواصلة، فلقد كنت أتوقع نوبة غضب، وها هو يفاجئني

بالضحك. "لا تقلق"، قالها لي وهو يحاول أن يطمئنني وكأننا في سياق آخر ومكان آخر. باغتتني الحيرة من محاولته أن يطمئنني بلا داعٍ، فلا مجال لها أصلا. أكمل كلامه ربما ليخلِّصَني من حيرتي ويتحكَّمَ بأعصابي بدلا من أن يَدَعَ لي فرصةً للابتسام أو للردِّ المتمالكِ الأعصاب: "قلتُ لك لا تقلقْ على نُسخ كتابك فلقد اشترينا النسخ كلها". انتابني القلق كحقيقة مؤكدة تملأ كل مساحات الفراغ حولي ولا تدع لي مجالا لأفكار أخرى أو حتى للكلام.

قام من على كرسيه وجلس على كرسي آخر أمام المكتب قبالتي، ثم فاجأني بطلب مباغت لم أعرف إن كان امتحانا أم حقيقيا: "فلنتبادل الأدوار، اجلس أنت على المكتب وأنا سأجلس مكانك، ولنتخيَّلْ كيف يدور الحوار أو ما الذي يمكنك أن تفعله". أحسست بأنني في مسرحية عبثية لم أقرأها من قبل، فقلت في سري "إنها فرصة كي أستعيد الكتابة على العملة أو على الأقل أشارك في كتابة هذه المسرحية العبثية، على أمل أن تتحول إلى مسرحية في الواقع أو على الأقل على المستوى النفسي".

عندما نهضتُ، لفتتْ انتباهي صورة السيد الرئيس من جديد، فتذكرت أن اليوم هو عيد النصر ومن المفترض أن يكون يوم أجازة. لست أدري إن كان التحقيق يدوم في الأجازات أم لا، لكنني أحسست بهاجس أن ذلك مجرد لعبة وقررت أن أكملها معه إلى آخرها حتى أكمل كتابة هذا المسرح الجديد أو على الأقل أمنحه فرصة لأن يُطْلِقَ الشاعرَ المحبوسَ بداخله.

٦-٨ أكتوبر ٢٠٠٩

سأركب دماغي

كان قد طلب من سكرتير اللجنة الوهمي أن يتصل بي ليحدد لي موعدا لم أطلبه. ذهبتُ إليه من باب الفضولِ ومعرفةِ كيف تفكّرُ هذه النوعيّةُ من البَشَرِ. أعددتُ أسلحتي وسننْتُ أطرافَ حِيَلِي وتهيّأتُ للقائه، مُخبِرًا السكرتير بأنني على استعداد تامٍّ للقائه، بل وأرحب بهذا اللقاء. وسرعان ما عاود هذا السكرتير الاتصالَ بي قائلا إن الأستاذ فَرِحٌ جدا بأنني ألَنْتُ رأسي وسِرْتُ نحو طريق اللقاء.

رفعتُ رأسي وأنا أدخل من باب الفندق وكأنني كل البراءة وكل اللامبالاة في آن. لم يستغرق الأمر طويلا حتى وصلت إليه. ابتسمتُ ابتسامة عريضة واحتضنته كأنه صديق قديم أو أنه أستاذٌ قديرٌ بالفعل يستحقُّ التقديرَ. ردَّ ابتسامتي بابتسامة أعرض منها كأنه لم يكن متجهما كالزعيم الفاشل في وجهي ساعة مناقشتي الهزلية في أبحاثي التي لم يقرأها، قائلا:

- كنتُ واثقا من أنك ذكي وأنك ستجيء إليَّ.

- (بتخابث لم أُظهِرْهُ في نبرة كلامي) سامحني يا أستاذي على ركوب الدماغ.

- (بعد تمهُّلٍ) المهمُّ أنك عرفتَ خطأك وسنطوي الصفحة السابقة كلها ونبدأ صفحة جديدة.

ابتسمتُ قائلا في سري: "يا لكَ من وقح! أتريد أن تطوي صفحة كتبتُها بدمي في أبحاثي التي تعمَّدتَ أن ترسبني فيها وتحتلها بصفحة هزلية لا أطيقُها ولا يمكن بأي حال أن أتصوَّر نفسي فيها؟". لكنني وسَّعتُ ابتسامتي

قائلا له وأنا أقلّب في يدي الكأسَ الذي قدَّمه لي دون أن أتجرَّع منه جرعة واحدة:

- يا مرحبا بالبدايات، لقد كتبتُ في الدكتوراه فصلا كاملا عن البدايات وإمكاناتها الواعدة.

- (احتدَّ فجأة كأنني شتمته أو وجَّهتُ له إهانة لا تُغْتَفَرُ) دعك من الدكتوراه وكل ما لن يجديك شيئا. أنت الآن على أعتاب مرحلة جديدة ولن تفيدك الدكتوراه في شيء.

- (مُسايرا له في الكلام كأنني تقمَّصتُ صوتا ليس صوتي) أنا شخصيا أوشكت على الكفر بكل ما كتبتُه من رسائلَ وأبحاثٍ لا أحسُّ الآن بجدوى كتابتها.

تجرَّعَ جرعة من كأسه وقضم ورقة خسٍّ ثم ركَّز عينيه على وجهي وهو يمد يده ويلعب بالإبهام والسبَّابة سويا كأنه يطلب مني مالا:

- لا يهم أن تكتب شيئا. سأتكلم معك بكل صراحة، المهم كم ستدفع.

- أدفع؟!

- نعم. أتحسب أن هناك أحدا فارغا ليقرأ أبحاثك الكثيرة الصفحات وحُجَجَكَ المرهِقة؟

- كنت أظن ذلك (راسما ملامح انكسار على وجهي).

- (أمسك بالكأس ورفعه أمام عينيه كمن يتأمله) إن بعض الظن إثم.

- ونِعْمَ بالله! (قلتُها على الفور).

فابتسم ابتسامة لم أستطع أن أحدد كل أبعادها. لكنني تركته يكمل كأسه إلى آخره وأنا ألوذ بصمتي متأملا. بادرته بالسؤال: "وماذا عن الأبحاث التي سأترقى بها؟". وسّع ابتسامته ومد لي يده ببعض الأوراق. تصفّحتها ووجدت أنها عرض سريع لأفكار قديمة وعادية ومكررة. كل خمس أوراق تقريبا عن موضوع ما لا ترقى حتى أن تكون خطة بحث لموضوع. نصحني أن أنشر ما قال عنه أنه أربعة أبحاث وقال إنه سيساعدني في نشرها بمجلات الجامعات الرئيسية بالعاصمة، فهذه الأبحاث ستعود إليه هو شخصيا ليحكّمها، كما أنه عرض عليَّ بأنه سيعفيني من تعبِ الذهاب بها إلى هذه المجلات وسيأخذها بنفسه إليها بعد أن يكتب عنها تقريره بصلاحية نشرها.

أخذتُ أنظر من آن لآخر حولي كأنني أريد أن أقنعه أنني أحاول أن أستكشف إن كانت هناك آذان بالقرب منا أم لا. عندما رآني ألتفتُ وسّع ابتسامته وقال لي: "لا تخفْ. كل من حولك مشغولون بكؤوسهم ولا يهمُّهم مَنْ هو حولهم". فقلت له على الفور: "خسارة". "نعم!"، قالها مستنكرا أو مندهشا كأنه لا يفهم معناها في هذا السياق، فكل الدلائل قبل ذلك كانت تشير إلى اتجاه آخر. فأكملتُ قبل أن يتلاشى اندهاشه:

- لكنك أثنيت على أسلوبي في الكتابة أثناء الماجستير والدكتوراه!.

- (في توتر) كنتَ الولدَ الوحيدَ و لم يكن لديك ما تقدمه لي. ثنائي عليك ضريبة المتعة.

لم أفهم كلامه، لكنه أكمله دون أن يترك لي فرصة للتساؤل أو التأويل: "عليك الآن أن تدفع ضريبة مماثلة". فقلت مندهشا:

- ضريبة مماثلة!

- نعم.

- كيف؟!

- هذا هو السؤال. سأقول لك كل شيء بالتفصيل.

- أتمنى أن أسمع هذه التفاصيل حتى تنشرح بصيرتي.

- ألا تعمل في الخليج؟

- بلى.

- ألا تكسب أموالا كثيرة؟

- على الأقل أحسن مما كنتُ عليه هنا.

- إذن عليك أن تدفع ضريبة كسبك الوفير كي ترقّى. صاحب بالين كذّاب.

- (التفتُّ إليه مستفسرا حقا) وما هما البالان؟

- (ردَّ عليَّ على الفور كأنه كان قد جهَّز إجاباته مُسبقا) أن تجمع ثروة وأن ترقّى. إما هذه وإما تلك. وإن أردت أن تجمع بين الاثنين فلابد أن تضحّي بجزء مما تكسبه هناك لترقّى هنا.

- (قلتُ متخابثا) وكم يجب عليَّ أن أدفع؟

- (قال على الفور كأنه كانت ينتظر سؤالي) لن أكون طمّاعا. سأطلب فقط دَخْلَ سَنَةٍ من السنوات الخمس التي قضيتَها في الخليج حتى الآن.

وما أطلبه قانوني تماما، فهنا تخصم منك الجامعة عشرين بالمائة من أي دَخْلٍ لك، وأنا طلبتُ الخُمْسَ. اعتبرْ نفسك مازلتَ تعمل هنا وأن العشرين بالمائة خُصِمَتْ منك. ولكن ضع في حسبانك أن ثمن الأبحاث خارج هذه الحسبة.

- (في هدوء شديد كأنني بريئ كل البراءة) لكنني ليس معي كل هذا المبلغ، على الأقل الآن.

- سأسهِّل عليك الأمر تماما. أنا لا أهوى التعقيد. لا يهم أن تدفع نقدا. هناك مجوهرات، ذهب، أموال، سيارة، أي شيء. أنا لن أصعِّب عليك الأمر ولن أطلب كل هذا المبلغ نقدا.

- (مُتَفَنِّنًا في رَسْمِ ملامح براءتي جيدا) بارك الله لنا فيك. سأجمع كل شيء وأنسِّقُ معك على الموعد والمكان.

مددتُ يدي مبتسما بحرارة بذلت قصارى جهدي لأن تبدو حقيقية تماما. لكنني لم أشأ قبل أن أنصرف أن أجعله يهنأ بأحلامه التي صارت تراوده أو أن يتسم على رَسْله ويشعر بالانتصار. لعبتُ بإصبعي في ذقني الحليقة وقلتُ له بكل هدوء: "يا أستاذي"، فابتسم، لكنني هويت على ابتسامته بكل ما أملك من قوة قائلا: "يا أستاذي، هل تعرف أنك أحقر إنسان قابلته في حياتي؟ سأستقيل من الجامعة وأتركها لأمثالك أيها الحقير". وخرجت في هدوء تام مستمتعا بصدمتي له وانتصاري عليه.

١٦-٢٨ فبراير ٢٠١٠

تجديد الثقة

صرتُ في حيرة من أمره و لم أعد أستطع أن أحسم شيئا وكأن كل قدرتي على الثقة في الآخرين انهارت فجأة أمامي عندما رأيته يتصرف هكذا. فبمجرد أن تولّي رئاسةَ نادي أعضاء هيئة التدريس وجدتُه يتحوّلُ مائة وثمانين درجة. أول كلمة قالها: "نحن لا نريد خروجا على اللياقة، فلا مناقشات سياسية ولا حوارات دينية ستجري في هذا النادي طوال تواجدي". استغربتُ من كلمة "نحن" هذه وكأن أعضاء هيئة التدريس انقسموا فجأة إلى معسكرين. وجدت بعض الأشخاص يلتفّون حوله ويبتسمون ويباركون كلامه، كما أنني عجبت من مدى قدرته على التمثيل، فطوال الفترة الماضية كانت كل أقواله وتصرفاته تعكس صوت الأغلبية. كان يعبر عما نفكِّرُ فيه ونُحِسُّ به. لكنه ما إن صعد المنصة حتى رأيناه رجلا آخر لا يمت بأية صلة لما نودُّ أن نفعله أو نأمل فيه. عاود الكلام قائلا: "أنا لن أسمح بأي تجاوز وكل الخطوط الحمراء التي سأضعها لا أريد أحدا أن يتخطاها". لم أستطع أن أصمت، فلو صمتُّ الآن سأظلُّ صامتا إلى الأبد. فواجهته وألقيت عليه كلامي فجأة:

- من أنت حتى تستخدم كلمة "أنا" أو كلمة "نحن" التي تعزل بها الأعضاء عن بعضهم البعض؟

- أنا رئيس النادي.

- وهل معنى أنك رئيس النادي أن تتصرف هكذا فجأة؟

- يكفيني أنني الرئيس.

أدركتُ أن كل أسس الحوار المتمدن أو المتحضر أو الراقي لن تجدي شيئا مع هذا الذي أخذ يؤسِّسُ لفكرٍ جديدٍ سيهدم به كل ما قام عليه هذا النادي. فكرت أن أرشقه بحذائي لكنني تذكرت أنني لا أملك إلا إياه، ولذلك احتفظت به في قدميَّ. ونهضت من على الكرسي مبتسما كأنني سأبارك له فوزه بالرئاسة. وما إن وصلت إليه حتى نفخت سريعا في يديَّ وصفعته بكفي وقبل أن يفوق من صدمته صفعته بالآخر مهددا إياه: "إياك أن تتجاوز حدودُ مَنصبِكَ احترامَك لزملائك". نهض فجأة وهدد بمعاقبتي ومطاردتي إلى أن أخرج من الجامعة بالمرَّة، واصفا إياي بالعميل والإخواني والعلماني، فضحكتُ لدرجة أنني لم أستطع أن أتمالك جسمي ووقعت على الأرض.

أمسك مكبِّر الصوت في يده وعدَّل وضع رابطة عنقه، ثم قال: "دعونا نبدأ صفحة جديدة. لابد من الصلح والسلام"، فاستبشرتُ واستبشر زملائي، فهو بالتأكيد سيلتزم بشعار حملته الانتخابية: "لا لهجرة العقول، لا لتجويع الأساتذة، نعم لنهضة مصر"، لكن استبشارنا لم يدم طويلا، فسرعان ما أكمل قائلا: "أظن أنه من العيب أن نظل على مقاطعتنا للسيد الوزير. سنتصالح معه حتى نثبت للسيد الرئيس أننا متحضرون ويمكنه الاعتماد علينا". حمت الألسنةُ وسبقتها الأيدي. أحسستُ بالبشرى عندما وجدت أيادي كثيرة تصفعه وتحمله لتلقي به في ماء النيل المطل عليه النادي.

١٦ مارس ٢٠١٠

مفتاح

يسلمني المفاتيح في ثقة وتحدٍّ ودعوة للإقدام. أعبِّرُ عن دهشتي من أنه مفتاح وحيد. ينظر لي نظرة فيها قدر من الحياد والتصميم في آن وكأنه يقول لي إنه يعرف ذلك. يربت على كتفي وكأنه يدفعني بأصابعه لأن أخطو خطوة أولى. يضع تاجا على رأسي وكأنه يرفع جلبابي عن الأرض قليلا. أحس برغبة في الهرش عندما يُلامس المفتاح الخشبي بشرة يدي. أتأمل المفتاح وتسترجع صفحةُ رأسي مَشاهدَ من بعض الأفلام القديمة: أبواب عتيقة، معرات، قُطّاع طُرُق. يشجِّعُني أو يستحثني بكلمات:

- أنت لها. من غيرك جدير بهذي المفاتيح؟

أجد لكلماته وقعا حميما على أذني بالرغم من أن قدميَّ تترددان في الخطو نحو الباب. فأتناسى الهرش للحظات، ثم أغمض عينيَّ وكأنني أودِّع كل حياتي وأتركها معلّقة على مشجب سأضعه أمام جانب الباب. أحس بتزايد شدة دفعه على كتفي وكأنه يود أن يلقي بي مرة واحدة خلف هذا الباب. هل كان غارا ما شاهدته في ذلك الفيلم القديم؟ أم أنه تابوت له باب مُغْرٍ؟ أم أنه يُخَسِّسُني بسكون الموت وحُرْمَتِه؟ أم أنه مَنْزِلٌ تتناسخ فيه الأرواحُ فلا تترك فيه روحٌ أولى لروحٍ تالية أي فرصة للانطلاق أو الاختلاف؟

عندما أضع المفتاح في الباب، أسمع صريرا عجوزا وكأن هذا المفتاح نَقْرٌ على غرفة أَدْمَنَ ساكنُها النومَ في عزِّ النهار. يخطر على أذني فجأة صوت ورشة إصلاح السيارات القديمة وهو ينخر في محاولات نومي في الغرفة التي استأجرتها في "بين السرايات"[1] قديما. ما أن أدفع الباب بقدمي حتى تنهال عليَّ روائحُ عطنة كأنني فتحتُ باب مقبرة فرعونية لم يدخلها الهواء منذ

[1] حي شعبي أمام جامعة القاهرة بالجيزة بمصر.

آلاف السنين. أهمُّ بالرجوع لكنني أجد الباب موصدا خلفي. أضع فيه المفتاح الذي سلمني إياه من كان يحثني بالخارج ولم يدخل معي. أجده لا يستطيع أن يفتحه. "أهلا"، أقولها وأنا أستشعر خيانة أو عجزا أو مواجهة غير متكافئة. يبدو أنني تركت كل أسلحتي وحيَلي بالخارج أو أن هذا المكان لا يستوعبها. أتذكر المشْجَبَ بجانب البابَ بالخارج والأفلامَ القديمة. لا أعرف لماذا تخطر برأسي القَدسُ العتيقة والفئران الجبلية والمطاريد غرب الجبل. تلحّ على مُخيِّلة عينيّ بلادُ الظلام التي كان يحدثني عنها جدي ومشاهد من قصّتي "انظر خلفك في صخب[2]". وأراني واقفا لا أفقه فعلا. يعاودني الشك في حيثيّات دخولي إلى هنا. لكن رجلا أشعث الشعر يحمل سيفا قديما وأوراقا صفراء كان يستحثني على الدخول أمام الباب. أتذكر قدميّ اللتين كانتا تتردّدان في الدخول. أتذكر المشجب من حديد وأتذكر الباب الموصد من الداخل الذي لا يستطيع المفتاح أن يحرك له ساكنا. تتعالى في أذنيّ أصواتُ هتافاتِ بعض المرشّحين في الانتخابات وتقترن بالأصوات بعض المشاهد التي سربتها وكالات الأنباء الغربية عن صور التعذيب في "مُعْتَقَلِ جوانتانمو".

يلعب على أعصابي ذلك الظلام الدامس المنتشر في كل مكان إلا من بعض الأنوار الخافتة هنا أو هناك التي لا تزيدني إلا إحساسا بالمصابيح المنكسرة في كل الأرجاء وكأن أياد عابثة قذفتها بحجارة من سجّيل جعلتْها شاهدة على الغياب دون أن تستطيعَ أن تمحو آثارها، فمازالت الأسلاك متدلية ومازالت بقايا المصابيح في مواضعها. "لا بأس"، أقولها بعد أن أقنعَ نفسي بأن الباب الوحيد الذي يوصلني للخارج قد سُدّ في ظهري للأبَد وعليّ أن أتقدم لأستكشف بقايا حياة تصلح لأن أسكن بها وسط هذه الدار. كلمات لا أذكر قائلها تعاود الوميض على صفحة رأسي:

– نظريات المؤامرة كامنة في "الدي ان ايه" الثقافي للمسلمين.

2 نشرت في مجموعة "غلق المعابر" عن دار التلاقي بالقاهرة، ٢٠١٠.

لا أدري ما علاقتها أساسا ولماذا تَهبطُ عليّ الآن دون سابق إنذار كأنها زائرُ فجرٍ وقحٌ لا يراعي خصوصية أو سَكينَة. أحاول أن أتوخّى الحذر وأنا أخطو بقَدميّ اللتين لا أراهما جيدا وسط الظَّلام. يُفزِعُني إحساسٌ بأن عينيّ بدأتا تتأقلمان تدريجيا على هذا الظلام. أسمع أصوات حشرات هنا وهناك. أحاول أن أعوّد رئتي على هذا الهواء القديم كي لا أموت اختناقا وأن أُخرِجَ من ذاكرتها الهواءَ البريَّ الذي كان بالخارج قبل أن أدخل إلى هنا، فعلى الأقل تَذَكُّرُهُ الآن سيزيد من إحساسي بأنني استجبتُ بغباء لإغواء ذلك الرجل وأنني تنازلتُ له بسهولة لا تقل عن تنازل "الزعماء" عن مطالب أهلهم.

أحس بشيء رخو يلتف حول رجلي بسرعة غريبة. أستجمع كل ما في ذاكرتي من جروح وانقضاض وأنفُضُ ذلك الشيءَ من على رجلي بسرعة الثانية الضوئية. تظهر أمام عيني من خلف ذاكرتي صورةُ الحمار الذي يرى ثعبانا يحاول أن يلتفَّ حول قدمه فيرفعَ قدمه بأقصى سرعة ويترلها مرة ومرات على رأس الثعبان إلى أن يصير مجرد خيط أو حبل ملقٍ على الأرض لا يمثّل أي تهديد لأحد. وربما كان حصانا.

كلما أتوغل يتباعد النور وكأنه أمنية لا لها أن تتحقق أو كأنه رغبة مراوغة تتعمد إذلالي دون جدوى. لكن بعض بقايا هذا النور تنسكب على الأبواب في نهاية الساحة أو الردهة، فأنا لا أستطيع أن أميّز معالم هذا المكان وبالتالي لا أستطيع أن أرسم في رأسي خريطة ذهنية واضحة له – تنسكب بقايا النور كأنها علامة تقول لي شيئا، تريد أن تدفعني نحو هذه الأبواب لأفتحها أو حتى أزيلها. أحمد الله أن المفتاح الذي بيدي يفتح إحداها. لكنني لا أدري ما الذي يكمن خلف كل هذي الأبواب ولا أيا منها أختاره. ينذرني إحساسٌ بأن النور الذي يدفعني لفتحها ربما كان سلاحَ الحيَّة زوجة الثعبان وتريد أن تستفرد بي لتنفث سمَّها في دمي على مهلٍ وكأنها تُقيمُ حفلةَ شرابٍ لامرأة وحيدة تجلس على مائدة وحيدة في ذكرى وفاة لا يشاطرها

فيها أحدٌ شيئا. أنتقل إلى باب آخر. أضع فيه المفتاح ولدهشتي ينفتح. أكرر نفس الحركة مع كل الأبواب. أجد هذا المفتاح الخشبي يفتحها جميعا ماعدا الباب الرئيسي الذي يمكنه أن يخرجني من هنا. تستوقفني الاختلافات البادية بين كل باب وآخر وكأن هذا المفتاح هو المفتاح الجامع أو صمام أمان أو لا شيء على الإطلاق. ما يستطيع أن يفتح الجميع ليس مفتاحا أبدا. باب وحيد هو الذي تبدو من فتحة مفتاحه آثارُ نورٍ بعيد.

وبالرغم من أن المفتاح يفتح الباب إلا أنني عندما أدفعه بيدي أحسُّ بتكتُّلٍ وراءه أو أنه يعاند حركة يدي. لا يمكن أن تكون زوجة الثعبان. لو كانت هي لكانت تركت الباب ينفتح بسرعة كي توقعني أرضا من أول خطوة. أُحسُّ بلذّة في الضغط على الباب وفي محاولتي للتّغلّبِ على مقاومته. لماذا يقاومني أصلاً؟ أهي رغبة منه في الحفاظ علي شيء ثمين بالنسبة له؟ تعاودني صورة التابوت. وأجدُني آخذُ موضوعَ إزعاج حُرْمَتِه ببساطة. يبدو أن حياتي وسط الصخب البري بالخارج لن تصير ممكنة بعد الآن. ومادام الأمر كذلك، ستكون حياتي على الدوام وسط هذه الأبواب وما يكمن خلفها. هل ستصير هي جزءا مني أم سأصير أنا جزءا منها؟ سؤال لا أستطيع الإجابة عليه مطلقا الآن. أنا هنا ولا يوجد احتمال بإمكان وجودي في مكان آخر الآن. كما أن هذه الأبواب تنبش حُرْمَتي. أدفع الباب بكل قوتي. أجده ينفتح. لكن أصوات الانكسارات تُوقِفُ قدميّ. أكتشف في نفسي خُبْثًا وساديَّة لم ألاحظهما من قبل. أبتسم بتلقائية وكأنني اكتشفتُ سرَّ سعادةٍ كان خفيًّا بالنسبة لي.

أجرّب نفس الطريقة مع كل الأبواب. وبالرغم من أنني أسمع أصوات ثعابين لا حصر لها، وكأنها تمارس "اعتقالا وقائيا" إذ أن صورة "باراك أوباما" تتضخم فجأة أمام عيني، إلا أن أصوات الثعابين تخمد فجأة عندما تنفجر أصوات الانكسارات. أبتسم وأزيح فكرة زوجة الثعبان إلى قاع رأسي. حتى لو استفردتْ بي، فسعادتي تمدُّني بقوى أكتشفُ عنفوانها تدريجيا

مع كل صوت انكسارات يصدر من خلف الباب الذي أفتحه. سأكون أقوى منها بالتأكيد. على الأقل سنكون متكافئين. تعاودني صورة الرجل الذي كان معي بالخارج وتزداد أصوات هتافات المرشحين للانتخابات. أبتسمُ في سخرية وانتشاء. أحسُّ بأن المفتاح أو مفتاحا شبيها به يفتحني أنا ويدلُّني علي ما لم أكن أعرفه عني: قواي الخبيثة ومقاومتي وسعادتي التي بدأتُ أفُكُّ خطَّها. تتعثر قدمي بشيء ربما كان صندوقا أو كرتونا. أتحسَّسُه بيدي في حذر. ألمسُ مصابيحَ كثيرة، أظن أنهم كانوا يخططون لمشروع ترميم أو إنارة؛ لكنهم نسوا أن يكملوه، وربما كان كل ذلك مجرد دعاية. تزداد سعادتي بهذا الاكتشاف. بالتأكيد يمكنني الآن أن أبدأ في تركيب المصابيح. وساعتها قد أرى أو أكتشف أشياء تسرّني. أرى رواد الفضاء الذي تمكنوا من إصلاح سفينة "هابل" وأراني مرتديا ملابس رائد فضاء يسير بثقة في أرجاء الدار ليصلح المصابيح. وأجد مشكلتي الوحيدة أنني لا أستطيع أن أخرج خارج هذه الدار لأثبت المصابيح بالخارج.

أكتفي بما اكتشفته اليوم وأفكر في النوم والراحة حتى أستطيع بالغد أن أواصل اكتشافاتي ومشاريعي التي بدأت صورتُها تتَّضحُ. أزيح أشياء من على الصندوق، ربما كانت فضلات أو بقايا وليمةٍ لم تكتمل. أجلس عليه وأتكئ على الجدار. تصل أصواتُ الثعابين إلى أذنيّ من كل الجهات. ينتابني الخوف. أجد أصواتها تزداد قوة. أسترجع اكتشافاتي وأصواتها التي خمدت عندما تكسّرت أشياء خلف الأبواب. أجد الأصوات حولي بدأت تخفت. سرٌّ آخر. لابد أن أستثمره. أضخّم مشهد الانكسارات في رأسي وأنا أسترجعه. تتحول أصوات الثعابين إلى خفوتٍ لا أكاد أسمعه، فأغمض عيني وأنا أثبّتهما على هذا المشهد الضخم.

أصحو على صوت مكبّر صوت يأتي من الخارج:

– هناك الكثير من الخوف، هناك الكثير من الشك. لكننا إذا اخترنا أن يقيدنا الماضي، لن نتحرك أبدا للأمام"[3].

أستغرب وصول الصوت أصلا، فطوال وجودي هنا بالداخل لم أسمع أي صوت من الخارج ولم تصلني حتى نسمة هواء برية تجدد هذا الهواء العطن المخزون. أحاول أن أتذكر شيئا من الماضي الذي يتحدث عنه ذلك الصوت. لا تصل ذاكرتي إلا إلى الرجل الذي كان ورائي بالخارج وسيفه الصدئ. لكن قدميّ تسري فيهما نغزة مفاجئة وكأنهما ينبهاني لشيء ما. أتذكرُ إحساس زوجتي بآلام الدورة الشهرية في موعدها بالرغم من أنها كانت حُبْلى. وسرعان ما أتذكر رفضَ قدميّ الدخول وأنهما نبّهاني إلى وجوب التردد قبل اتخاذ القرار، وجوب التوقف قليلا كي لا أتخذ قرارا ليس في صالحهما، هكذا فسّرتُ إشارتهما بعدما ربطتُ بين الصوت وحركتهما. أتذكر مشجبا بالخارج، لكنني لا أستطيع أن أتذكر إن كنت أنا الذي نصبته هناك أم أنه كان منصوبا من قبل. يخرجني من تذكري ملمس الصندوق تحتي عندما أحس بحركة واهنة تدب فيه. أرفع غطاءه في حذر، فربما كان ثعبانا يرقد فيه في انتظار اللحظة المواتية للانقضاض عليّ. ألمسُ بعض المصابيح تتحرك. أنهض لأتحسس أي شيء ألقف فوقه حتى أستطيع الوصول إلى المصابيح المكسورة وسط هذا الغبش الذي تبدو فيه كل الأشياء أطيافُ أشباحٍ لا يرتاح لها صدري. لكن ذاكرتي تعيد لي إحساسي بالسعادة والنشوة قبل أن أنام. أجد بعض الكراتين، وعندما أتحسس ما بها أتبيّنُ أنها كتبٌ مرصوصة كأنها خرجت من المطبعة مباشرة إلى هنا. أزحزحُ واحدة وأقف فوقها. أمسك بقايا مصباح قديم بحذر حتى أتمكن من إخراجها من "دويل" النور. أضع مصباحا جديدا مكانه. لا ينبعث أي نور. "لا بأس"، أقولها لنفسي، "لابد أن أسلاكا أخرى مازالت تسري فيها بقايا تيار كهربائي". أعكف على محاولة الإحلال والتبديل. في كل مرة أطرد إحساسا

[3] من خطاب الرئيس الأمريكي باراك أوباما بجامعة القاهرة ٢٠٠٩.

باليأس يدس سمّه في عروقي لكي أكُفَّ عن المحاولة. أبتسم لصدق مقاومتي عندما يتدفق نور من مصباح. أكتفي بإحساسي بالانتصار وأتوقف عن مواصلة إحلال المصابيح، فلا أريد أن تعكّر عليّ أسلاك لا تُحِسُّ بتدفقِ التيّار في أوصالها.

أنزلُ من على الكرتونة وأبدأ في تفحّص ما بها من كتب. تراودني ابتسامة لا أعرف إن كانت خبيثة أم صافية عندما أجد كل الكتب عبارة عن سِيَر عربية قديمة: عنترة بن شدّاد، الأميرة ذات الهمّة، الظاهر بيبرس، السيرةَ الهلالية، سيف بن ذي يزن، فارس العرب، الأمير المنتقم... أفاجأ بوجود بعض الكتب عن الهجاء وسط كل هذه السير. أبتسم لاكتشافي. "عندما وقفت على هذه الكتب لم أستطع إلا أن أنير مصباحا واحدا". ربما كان خوفا ذلك الذي يدفعني لأن أؤكد: "لكنني أنَرْتُ مصباحا على أية حال".

أنتقل إلى كرتونة أخرى. بعض الكتب عن الجنس والتسامح والحوار بين الأديان. لكنها مازالت في شكل مخطوطات. عليها هوامش كثيرة بخطوط عديدة. وأجد وسطها قصة شمشون الجبّار. "أهلا بك"، أقولها له وأنا أستحضر قوته الهائلة وضعفه الإنساني في قصيدة قرأتها لشاعرة اسكتلندية[4]. أنتقل إلى كرتونة ثالثة. يطالعني كتاب عن الاختلافات بين الأديان وكتاب آخر عن أمجاد العرب والحضارة الإسلامية التي أنارت العالم. ألتفت إلى المصابيح المكسورة فوقي. أمسك الكتاب. يعاودني الإحساس بالجوع قويا شرسا. أبدأ في القراءة علّها تحميني من هجوم الجوع حتى ولو مؤقتا، فلا يوجد أي شيء حولي صالح للأكل. أستغرقُ في القراءة بالرغم من وجود الكثير من الألفاظ المهجورة التي أتذكر إحساسا بمعناها من خلال قراءاتي السابقة للكتب القديمة أو للقصائد الموزونة "الحديثة!" التي تُحسِسُكَ بأنك تعيش في زمن ولّى لا يمتُّ لك بصلة وتتكلم بلسان غير لسانك، ولا

[4] قصيدة دليلة للشاعرة كارول آن دفي.

أعرف شيئا عن معنى بعضها الآخر. يبتعد عني الإحساس بالجوع بالرغم من أني أدرك فراغ بطني. أحس بملل من القراءة. لكن عندما تعاود أصوات الثعابين حضورها بشراسة، أُمسكُ "الكتاب بقوة"، أتذكر ابني "يحيى" الرضيعَ وأواصل القراءة في نهم متعمّد.

لا أحسُّ كَمْ من الوقت مضى إلا عندما أرى المصباح ينطفئ فجأة. وبالرغم من أني كنت أحس بضعف النور التدريجي أثناء القراءة، لم أشأ أن أكُفَّ كي لا يتزايدَ صوتُ الثعابين. أعود إلى موضع صندوق المصابيح وأمسك بأحدها. وعندما أثبّته في موضع المصباح الذي استنفد قدرته على الإضاءة أجده لا ينير وكأن أحدا قطع التيّارَ عن هذه الدار بأكملها أو أن المصباح تلف بالتقادم. يعاودني الإحساس بالجوع. ويباغتني حنين للخارج. أستعيد ذاكرة حركتي إلى أن أصل إلى الكرتونة التي بها قصة شمشون الجبّار. وبما أني لا أتبيّن الكتابَ وسط هذه العتمة فإنني أضع يدي على الكرتونة بأكملها وأبدأ في تمتمة بعض الأدعية والتعاويذ وآيات القرآن التي أتذكرها. ربما أحسُّ بعبثِ ما أفعله، فأرفع يدي للسماء وأبدأ في الدعاء بحُرْقة وصدْق. أكرر الأدعية مرات ومرات إلى أن تدبّ في جسدي قوة لم أكن أعرفُ أنني أمتلكها أصلا. أحمد الله بصيغة مضاعفة: "اللهم إني أحمدك وأسبحك وأشكرك وأمجدك وأولّهك إلها واحدا لا إله إلا أنت بعدد خلقك ورضا نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك ومنتهى رحمتك".

أستثمرُ قوتي الجديدة وأنطلقُ نحو الباب الخارجي مباشرة. أُلقي بكل ثقَلي عليه. أسمع أصوات الانكسارات بالداخل. أُلقي بنفسي عليه مرة أخرى. تتزايد الانكسارات. لا أسمح لوَهَنٍ أن يتسرَّب إلى نفسي. أُلقي وأُلقي إلى أن ينكسر الباب ويسقطَ علَى الأرض في ضجة هوجاء. يَفْزَعُ بعض السائحين الواقفين أمام الدار. ألقي عليهم السلام بالرغم من أنني متيقن من أنهم لا يفهمون لغتي. ولدهشتي يردّون عليّ السلام. يمسكون في أياديهم مفاتيح مثل المفتاح الذي كان بيدي قبل أن أدخل وكأنه مفتاح

النيل. أبتسم عندما يسلطون كاميراتهم عليّ. ثم أجد شارعا واسعا لم أعهده عندما كنت بالخارج من قبل. أصابع أطفال تشير إليّ ويصيحون. يمسكون بأجهزة أشبه بالريموت كنترول ويوجّهونها نحو شاشات متعددة الأشكال على الحوائط أو أن الحوائط ذاتها شاشاتٌ وكأنهم يبحثون عن أية معلومات عنيّ. "رجل من القرن الحادي والعشرين"، يقولونها وهم يتضاحكون، ثم سرعان ما يعودون إلى أجهزتهم وشاشاتهم. ولكنني أسمع من جديد بعض الأصوات التي كانت عندما دخلت! هتافات "لا شرقية ولا غربية"، "هناك الكثير من الخوف، هناك الكثير من الشك. لكننا إذا اخترنا أن يقيدنا الماضي، لن نتحرك أبدا للأمام".... أسبّح الله. تشدني الشاشات الالكترونية المنتشرة في كل مكان والإعلانات المتدفقة عليها. "افتتاح فرع مكتبة الإسكندرية في الوادي الحادي عشر"، "إنجازات الشباب في الوادي الخامس عشر على الحدود الليبية"، "جائزة اخناتون الكبرى للأديب المصري المولود في عام ٢٤٧٣"، "جائزة زويل العالمية للعالم المصري نجيب العالم"، "مسابقة الشباب تحت سن الثلاثين في النانوتكنولوجي"، "اشترك معنا بأسعار رمزية لزيارة المجرّة الخامسة عشر"... أفرك عينيّ. نفس الإعلانات. تطاردني كاميرات التصوير من كل الأيدي والهواتف، فلا أملك إلا أن أجري في اتجاه جانبي علّي أجد حلاقا ومطعما ومحل ملابس وبرنامجَ تحديث.

١٦ مايو – ٥ يونيو ٢٠٠٩

خصْيان

"كان عملا عظيما. ما أحلاها من أيام قضيتُها في القصر. لا أدري لماذا كان هؤلاء الأولاد يصرخون عندما كانوا يساقون إليّ. رحم الله هذه الأيام. رحم الله الخَصْيَ". عندما أفاق من أفكاره، حمد الله على أن الرياح لم تعصف به كما عصفت بمعظم القصور وحمده أكثر على ما جمعه من ذهب وأموال وأعضاء محنطة. وقف بسيارته عند إحدى الحارات ونزل منها متبخترا كأن أفكارا حزينة لم تعقب أفكاره التي تبخّرت كما القصور. تسابقت إليه بعض الوجوه التي تحاول أن ترضيه بأي طريقة كانت. لكنه انتقى وجها لم يتعامل معه من قبل في هذه الحارة وإن كان يذكّره بوجوه رآها في حارات أخر. أشار إليه قائلا له: "ما الجديد الذي ستريني إياه؟" سار أمامه هذا الوجه فَرِحًا كأنه يدله على المكان الذي سيرسو عليه:

– سأُرِيكَ الآن ختانَ رجل بالغ.

– لا. هذا رأيتُه من قبل.

– سأريكَ نزعَ طبقة من الجلد دون أن تنكسر البيضتان.

راقتْ له الفكرةُ. فقد كان كل عمله في سابق أحواله أن ينزع البيضتين. لكنه الآن سيرى كيف يُنزَع الجلدُ دون أن تُمَسَّ البيضتان.

أشار الوجه الجديدُ إلى أحد الشباب المتسكّعين في الحارة قائلا:

– يا ولد يا خلف.

– نعم يا مسرور.

– مسرور هكذا بدون عمّي!!

– نعم يا عم مسرور.

– تعالَ لتقضي معي حاجة الباشا.

– ثوانٍ يا عم مسرور.

قالها خلف وهو يسرع إلى عِشّتِهِ، بينما أجلس مسرورُ الرجلَ على أحد الكراسي أمام محل من المحلات. سحب "خلفُ" سيجارةً من صندوق في الغرفة ثم وقف أمام المنزل يدخن بشراهة وتأنٍ. سعل بشده عندما حبس الدخان في صدره وفمه طويلا. استنشق بعمق ثم أطفأ السيجارة التي لم يكملها ووضعها في جيبه. أخذ يجري في الحارة جيئة وذهابا إلى أن أحس بقوة الهواء حول رأسه وبدأ يرى في الحارة حوله ما يضحكه، ثم نادى خطيبته غير الرسمية واختفيا خلف إحدى العِشَشِ.

خرج "خلف" رافعا رأسه لثوانٍ وسرعان ما ضبطها ثم أنزلها قليلا وسار بخطوات حاول أن يضبطها ولكنها لم تنضبط. وعاد إلى مسرور والرجل الذي أوشك انتظاره على التضايق.

– ثوانٍ أُشعِلُ السيجارة.

– على مهلك. المهم صحتك ودماغك.

أشعل باقي السيجارة وهبطت ملابسه إلى الأرض. مد بصره في المدى كأنه لا يرى شيئا أمامه، قائلا بصوت استغربه حتى مسرور الذي يعرفه منذ أن وُلِدَ: "ابدأ يا عم مسرور". نظر إليه الرجل بابتسامة لا تخلو من مرارة،

متذكّرا سجائره التي كانت تشتعل طوال الليل في القصر وفرحه نهارا بالانهماك في القيام بمهمته بهمّةٍ وسرورٍ، فازدادت ابتسامتُه مرارةً وأنزل نظرته لتتابع المشهد بتأنٍّ وتركيز. لكن "خلف" قاطع لحظات الصمت قائلا: "أعطني خمس دقائق قبل أن تبدأ" وأخذ ينظر لأسفل ذلك النافر الصلب كأنه يودعه. وعندما أشار بيده إلى مسرور دون أن يتكلم، اقترح مسرور على الرجل:

– ما رأيك يا باشا في أن ننزع الشعر شعرة شعرة أولا؟

– سيكون أجمل.

لكن خلف تدخّل في الحوار في آخر لحظة قبل أن يبدأ مسرور في نزع الشعر وقال: "لكن ذلك لا يدخل ضمن الحساب". فردّتْ عليه ابتسامةُ الرَّجُلِ التي بدأت مرارتُها في الخفوت: "لا يهمّكْ شيءٌ". وعندما وجد خلف أن هذا الرجل لا يبالي بالحساب، أضاف: "ما رأيك لو قَصَفَ مسرور البثورَ التي في منابت هذا الشعر؟" صفّقَ الرجل ليحييه على فكرته الرائعة، ثم نظر إليه نظرة طويلة صامتة، واقترح عليه اقتراحا إضافيا: "وما رأيك لو شويتُ بيضتيك بعد نزع الجلد". سرح بصر خلف، ثم زرَّ عينيه فتوقّد فيهما بريقٌ: "سيكون حسابنا سبعة أضعاف المبلغ المعتاد". زرَّ الرجل أيضا عينيه وتوقدت داخلهما صورةٍ شيِّ البيضتين على مهل، فهو لم يفكر في ذلك قط بالرغم من أنه قضى عشرين عاما كان بإمكانه أن يفعل ذلك كل يوم. "توكّلنا على الله".

٣ ديسمبر ٢٠٠٩

امتداد

-١-

تباعدت بَلْدَاتُنا وراءنا ونحن نقود سيارات الميكروباص المُستأجرةَ في الاتجاه الشمالي الغربي. قررنا أن نقضي يومين في الدير سياحة واستجماما وتأمُّلا. تذكرنا برنامج "لمبة شو" على قناة "نايل كوميدي"، فأخذنا نتضاحك ونحن نغنّي "بالسلام احنا ابتدينا بالسلام" ونحن نتفرج على الفتاة الجالسة على ضفة الترعة يسارنا وهي تغسل شعرها – منّا من يتفرج بأسى، منّا من يتفرج بإعجاب أو دهشة، كأننا وجدنا راحة في مشاهدتها، أو أننا كنا نهيئ أنفسنا للاستجمام في الدير. لم نكن متعجلين، فالطريق كلها جزء من رحلتنا. لذلك أوقفنا سياراتنا على جانب الطريق قليلا وخرجنا لننعم بالخضرة والإحساس بماء الترعة المنساب دون أن نلمسه. تذكّرنا إعلانات "أعط ظهرك" للترعة القديمة. لكننا لم نعطها ظهورنا، وفي الوقت ذاته لم نلمسَ الماء. فقط أخذنا نتأمل صفاءه والأسماك الصغيرة التي تعوم بالقرب من سطح الماء. سمعنا سارينة شرطة ما. وجدنا وجوها لا يظهر عليها أثر الطين تأمرنا بالابتعاد. يبدو أننا لم نتردَّدْ أو لم نُرِدْ أن يُفْسدَ فرحتَنا شيءٌ غريب أو سخيف، فسرعان ما صعدنا إلى سياراتنا وأدرنا المحركات كي نواصل رحلتنا.

غابت الترعة وغابت الفتاة التي تغسل شعرها عن عيوننا: ربما كان رجال الشرطة اقتادوها معهم. جفت أغنية السلام من على شفاهنا. حاولنا أن نبلل ألسنتنا بالماء. كان يبدو علينا أننا سافرنا آلاف الأميال، بالرغم من أن عدّاد سرعة السيارة لم يُظهر إلا آلافا قليلة من الأمتار، بل إن الألف الثانية لم تنتصف بعد. هل تذكّرنا مسلسلَ "سُنْبُل في رحلة المليون" توقيعًا تلبيةً؟ أي توقيع بالضبط؟ أخذنا نلبي ونكبّر مسلمين ومسيحيين كأننا دخلنا أرضا مقدسة. رأينا رجالا يقلّمون أشجار نخيل، لم يكتفوا بالجريد

والسعف، فسرعان ما رأينا قلوبَ النخل وجمّارها يتساقطون على الأرض بلا هوادة وكأنهم خطايا تُضْرَبُ بالبلطة ثم تُقْذَفُ على الأرض التي تتأوه تحتها. وما أن فكّرنا في الاقتراب من النخيل والضغط على كلاكس السيارة لتنبيه المقلّمين حتى طارت نحونا بلطة كادت تهشّم زجاج إحدى السيارات لولا أن سائقها تفادى هذه البلطة في اللحظة الأخيرة. بدأت الرمال في الظهور، وبدأت نفوسنا تتأهب للسياحة والتأمل.

-٢-

كان زوجي معي – أين هو الآن؟ ستنفرج الأزمة قريبا بإذن الله. كثرةُ الاعتقال تولّدُ الانفجارَ والسقوطَ. وَصَلَ الأمرُ إلى أحطّ سوءه. فليُمَرِّرْ الله أزمة الانهيار الوشيك على خير – كان معي وكان يقول لي "لا تخافي"، فهو بجانبي وأنا بجانبه. كان يحاول أن يطمئنني وأن الجبل – أو ما نسميه جبلا، فهو في الحقيقة مجرد تل – لا يستدعي كل هذا الخوف؛ حتى وإن كان جبلا، لا يهم: إن كان شاهقا اليوم، فنحن في قمة "الشَهَق" وإن كان لا يبدو علينا ذلك. أخذ الخوف يتسرب على إيقاع كلماته ولمساته من آن لآخر إلى أن تهيأتُ للصعود. وعندما تأملتُ الأشجارَ التي كانت تتسلق التلّ كأنها ندٌّ له، تيقنت من صدق كلامه وأنني بإمكاني أن أكون شجرة مثلها ونداً له حتى ولو كنتُ شجرة لولبية. تذكّرت أبحاثي التي تقدمتُ بها للجنة الترقيات والخوفَ الذي كان يتسرب إليّ واهنا قبل الدخول إلى اللجنة و"لجنةَ" صنع الله إبراهيم. وما إن دخلتُ وتيقّنتُ من أن أعضاءها كانوا يبيّتون النية في إرسابي وكأن أحدا منهم لم يقرأ شيئا مما كتبتُه أو استنتجتُه، أو أنهم قرءوه وفهموه فراودهم الخوف على أقلامهم، زال الخوف من قلبي تماما وبدأتُ أنظرُ إليهم في شفقة ورثاء على ما فرّطوا في حق أنفسهم وما جنوه في حقي؛ فتحوّل خوفي إلى ثقة بنفسي وبأنني كنتُ على الطريق الصحيحة.

نظرتُ إلى التل في هدوء وكأنني تركت كل خوفي ودفنته في مقابر

أعضاء لجنة الترقيات. وشرعت في أن أتسلّقَ التلَّ في بهجة وحياة كأنني إحدى هذه الأشجار. وعندما كنتُ أنظر إلى ثمارها، كنتُ أحس بأن جسدي بدأ في التشكل كما لو كنتُ على أعتاب مُرَاهَقَة ثرية لا تبخل بوضع لمساتها الرقيقة على جسدي ونفسي وعقلي كأنني نبتةٌ كفَلَ الله الصحراءَ بأن ترعاني. وعندما نظرتُ إلى زوجي، وجدته يبتسم في وجهي ويدوس على ما تبقى لديه من خوف – أدركت ساعتها إن خوفه في البداية لم يكن أقل من خوفي، ولكنه تظاهر بالشجاعة ليدفعني للأمام حتى أتخذ خطوتي الأولى للصعود – يدوس وهو يصعد التل أمامي أو بجانبي، إذ أن ثقتي بنفسي ربما جعلتني أتهوّر وأنا أتسلق التل فأسبقه. ألمسُ يده في تفهُّمٍ فتشاركنا الأشجارُ إحساسا بالتدفُّقِ والعُلُوِّ.

-٣-

نندهش كل مرة نقف بسياراتنا أمام بوابة الدير ونحن نتأمل الصليب المرسوم ببراعة تضارع براعة الرسوم على جدران المعابد الفرعونية بالرغم من أن بعضنا لا يومن بفكرة الصلب أصلا. وما يدهشنا أكثر الامتزاجُ بين الصليب ومفتاح النيل وكأننا سنلج النهر من أوسع ضفافه. ينبّهنا أحدُ الهواتف المحمولة بآذان العصر قبل أن نبدأ في الدخول إلى الساحة الأمامية المُعدَّة لاستقبال الضيوف أو الزائرين أمثالنا ومنها نتفرق: الرجال إلى دير الرهبان والنساء إلى دير الراهبات. يقول لنا الراهب مبتسما إن "الله جعل أرضَ الدير مَسجدا وطهورا". نبتسم عندما ندرك مغزاه، فنحدّد اتجاه القبلة بناء على بوصلة ساعة أحدنا ويبدأ المسلمون منا في الصلاة على الحُصُر المفروشة في طرف الساحة. نصطف نحن النساء في الصف الأخير كما جرت العادة، ونشرع في الصلاة كأن رحلتنا حتى الآن كانت دعاء متواصلا.

بعدما ينفصل عنا الرجالُ، نتحول في دير الراهبات. نقف أمام كل شجرة زيتون، كل نخلة، كل جميزة، كل نبقة، كل توتة، وكأن كل هذي

الأشجار أصحابُ المكان ولا يسعنا أمام ما تمدنا به من تأمل إلا أن نقف تقديرا وإعزازا وودًّا. نؤجل تأمُّلَ حقول القمح لوقت الآخر ونكتفي بنظرة من بعيد. نفرش حُصُرَنا ونتوسطنا كبيرة أو كبرى الراهبات — لا نعرف لقبها على وجه الدقة، لكن خجلا إنسانيا، ربما من جهلنا، يمنعنا من السؤال.

-٤-

تميل عليّ راهبة وتسألني: "كيف حال الحياة بالخارج؟" فأرد عليها: "الحياة هي الحياة، فيها وفيها". يبدو أن إجابتي لا تقنعها أو أنها كانت تنتظر مني ردا مختلفا. تنظر إلى جسدي، ثم ترفع عينيها إلى وجهي، ثم تصمت، ربما لتتدبر كلامي. تعاود السؤال بطريقة أخرى: "كيف حالك أنت؟". أتحسس جسدي، لأتأكد من وجود بصمات قديمة ولكنها لم تفارقني أبدا، فأدرك مدى البتر. أتذكر لجنة الترقيات وأمن الدولة وزوجي الذي لم أره منذ سنين، وأكرر نفس الإجابة. وأجدها تخرج مني محمّلة بالمرارة أو الحزن أو الحنين، لا أدري، لكنني أحسها مختلفة تماما عن الإجابة السابقة بالرغم من أن الكلمات لم تتغير وكذلك الصياغة. وأجدها تربت على يدي في تفهّم وكأنها تحسّ بما أحسّ به ولكن لأسباب مختلفة. تغيم عيناها وكأنها موجودة في مكان آخر، ثم تقول: "كان الرب في عوننا جميعا".

-٥-

نسأل الراهبة عن سبب بناء الدير بعيدا عن تلك القرى، فتقول لنا: "نبتعد عن الحياة لتزرع الحياة". وعندما تظهر على وجوهنا علامات حيرة قد تشي بطلبنا التوضيح تستطرد قائلة: "الطريق إلى الحياة ليس سهلا كما يتصوره البعض. على المرء أن يسلك كل تلك الطريق ليصل إلى هنا. الطريق في حق ذاتها ذات معنى. من يسلكها يدرك كيف يتخلص من أطماعه وأحقاده وكلام المغرضين حتى يصير إنسانا يتعايش مع الآخرين في سلام". نصفق جميعا دون أدنى اتفاق كأننا بدأنا ندرك جزءا من مغزى رحلتنا

وتوقُّفنا على الطريق من آن لآخر. تعاودني تجربة صعود التل وصورة زوجي واللحَان المنتشرة في كل مكان وأول إحساس بلمسته وأول دفء عجيب كأنه السكينة وأول صفحة كتبتُها وقصيدة تغنيتُ بها بالرغم من أنها تخلو من كل الموسيقى العبيطة التي لا تُحِسُّ بشيء.

أنتبهُ على صوت الراهبة وهي تحدثنا عن أنواع الزرع في الدير بالتفصيل وكيف أنها حياة موازية ولكنها لا تبتغي إلا وجه الرب الذي قال: "أعطوهم أنتم ليأكلوا ... إنني أشفق على الجميع" و"كل من سألك فأعطه". وأخذتْ تتكلم عن صحراء مصر وسِيَر الراهبات والرهبان فيها وقصة بهاء طاهر "أنا الملك جئت" ورواية "السيميائي" لباولو كويليو. توقعتُ أن تحكي عن "خالتي صفية والدير" لبهاء طاهر أيضا، لكنها تتحدث عن "المَلك الذي سيجيء" وكأنها تتحدث عن قصة لزوجي قد أستطيع أن أنشرها قريبا إذا توفّر لديّ المال لطباعتها على حسابي، فسلاسل الهيئات الحكومية إما أن يظل كتابك في أدراجها حتى يضيع أو أنها تنشر للمقرَّبين وغير المغضوب عليهم. تَذْكُرُ كبيرةُ الراهبات مثالا من هنا ومثالا من هناك، ثم تعود إلى الوقت الحاضر لنجد أن الدير يفوق عشرات الجمعيات الخيرية وعشرات المصانع التي لا تبخل على أي من أبناء الوادي في الأسفل بأية مساعدة.

-٦-

تطول نظرةُ الراهبة إليّ، فأحس بالحرج والارتباك. لا أحب أن يطيل أحدٌ النظرَ إليّ بهذه الصورة. ربما أسعد بنظرة عابرة إليّ أو حتى متلصصة، فمعناها على الأقل أن هناك أحدا يهتم بأحد أو أنني مازلتُ موجودةً وسط الحياة رغم كل شيء، أو أن الحياة التي فيّ تُلْفتُ انتباه "عشّاق الحياة" في فيلم "المصير" برغم ما ينمو من موت. لكن طولَ النظرة قد يجعلني أشكُّ أنني مختلفة أو غريبة أو أنني لست من هنا. ومع ذلك لا أجد حرجا في أن أكلمها في الموضوع صراحة. أجدها تبتسم، ثم تربِّتُ على يدي كأنها تقول لي: "لا تقلقي". ثم تباغتني بسؤال:

- هل أنت زوجة فلان؟

- وكيف عرفتِ؟

(أقولها دون أن أحاول أن أخفي دهشتي أو الشعور الخفي بالغيرة الذي تسلل فجأة إليّ من جرّاء سؤالها المباغت)

- مجرد إحساس.

- وهل تعرفين زوجي أصلا حتى تحسي بأنني زوجته؟

- اشتركنا في بعض الندوات قديما ضمن برنامج "حزب الأرض المدنيّة" وأراني صورتكِ.

(أحس بأنني في عالم غير العالم. أفكر في أن أسألها عن علاقة راهبة ما بالحزب، لكنني لسبب لا أعرفه لا أسألها شيئا، أو أنني أدرك مدى عمق العلاقة بالأرض والمدنيّة والحزب فلا أود أن أسأل سؤالا غبيا يُظهرني بالجاهلة أو المتسرعة التي لا تتدبّر ما تقوله)

- بالطبع تعرفين أن هذا الحزب محظور الآن.

- أكيد. وإلا ما كنتُ جئتُ إلى هنا.

- نعم!

(أقولها باستغراب دون أية إضافة أخرى، فنبرتي كافية للتعبير عن طلب الإيضاح)

- كنتُ سأكون مثل زوجك خلف جدران المعتقلات. أشكر الرب أنني جئت إلى هنا لأواصل حياتي ولكن بأسلوب مختلف.

لا أدري إن كنتُ أنا التي بدأتْ أم هي، لكننا لا نملك إلا أن نتعانق كأننا وجدنا أنفسنا بعد غياب. لكن جزءا من عقلي يقول لي احضنيها بقوة لتتبيّني إن كانتْ بصماتُ زوجِكِ عالقةً بجسدها. لا أعثر على شيء، فيزداد

اطمئناني وأحضنها من جديد كأنني اكتشفتُ صديقة جديدة أو وجها يعرفه زوجي.

-٧-

تنادي راهبة ما على كبيرة الراهبات، ربما كانت مساعدة لها. وعندما تعود، نجدها متغيّرة الوجه كأن همّا عظيما جثم على صدرها فجأة: "لجنة حريات دينية هبطت على الدير كأنها العاصفة الهوجاء التي تستهتر بكل شيء". في الحقيقة لم نسمع بهذه اللجنة من قبل، فأبعد ما نتصوره أن تكون في الدين لجان مثل لجنة صنع الله إبراهيم أو لجنة الترقيات، لذلك نبادرها جميعا بالسؤال عن هذه اللجنة، وإن اختلفت نبرة السؤال ما بين معجب وما بين مستنكر. فتبدأ في الكلام بأسى عن الهيمنة الأمريكية ولجان تقصي الحقائق المزوَّرة وحرب العراق وكأن أمريكا تنقصها الهيمنة فأرسلت سيّاحا يقولون إنهم لجنة من الكونجرس لتراقب ما نحن فيه، وكأنهم في بيوتهم وعلى أرضهم، لا على أرض لدولة أخرى ذات سيادة. أتذكر الأمريكان الذين يدخلون بتصاريح مترجمين ثم يقومون بالإرشاد السياحي وكأن بلدنا لا يعرفها غيرهم. لا أستطيع أن أمنع نفسي من التعليق قائلة: "ربما سمعتْ عن النهضة الاقتصادية في الدير فأرسلتْ لجنة تفتيش على مزارع القمح". تقهقه كبيرة الراهبات برغم ما بها، وتلقي نكتة لا تخلو من مغزى مباشر بأن "أقباط المهجر ربما طمعوا فيما ننتجه في الدير"، ثم تندد "بوضع الملف القبطي في إطار ديني": "ليست مسألة أقباط أو غير أقباط. ها نحن جميعا سويا في هذه اللحظة وعلى الدوام. المسألة مسألة هل يأخذ أحدٌ حقوقَه أصلا أم لا؟. هل يفهم أحد معنى الوطن أصلا؟ من قتل شهدي هو نفسه جلاد سيد قطب كما يقول نجيب سرور". يدهشني تحول نبرتها من النبرة الصوفية في كلامها السابق عن الطريق والحياة إلى النبرة العملية الواقعية جدا هنا، وإن كان كلامها الأخير ينتهي ببيت شعر لنجيب سرور ليربط كلامها كله في سياق واحد. أتذكر زوجي. أتذكر الراهبة. أتذكر رجال الأمن عند

الترعة وسياراتنا التي أسرعنا بها خوفا منهم ومن بطشهم. نلتفت إلى بعضنا بعضا، فنعلق ساخرين على لجنة الحريات:

– ما معنى الحرية؟

– الواحد كأنه لم يعد يدري شيئا.

– أهي لباس؟

– بل هي إحساس.

– هي الطين.

– هي الأرض

– هي ذلك النهر الذي يمتد بطول الوادي في الأسفل.

– وهي هذه الصحراء المترامية والخضرة التي تلفت الانتباه لنفسها.

– يبدو أنهم لم يتعلموا شيئا من تجربتهم بالعراق.

– ولن يتعلموا شيئا على الإطلاق ماداموا يضعون نظاراتهم على عيون كل الشعوب.

– "يا ليت قومي يعلمون"!

– ورجال الأمن لا يفلحون إلا في تهييج الناس.

– الغباء له ناسه.

– والعمى له ناسه.

– يقولون إن شارع الهرم اليوم ظل مختنقا بالمرور لساعات.

– ألم يفتتح الرئيس الكوبري العلوي!!

– ومع ذلك! يقولون لجنة حريات!

– أتدرين؟! لو كانت تتبع مجلس الشعب، لأحسسنا بها على الأقل وتفهمنا ظنونها.

– يقولون إن المجلس سيُحَلُّ.

– وحتى لو رُبِطَا!

– لكن سحرة فرعون ماتوا جميعا!

– في هذه الحالة سنضطر إلى استيراد سحرة ليفكوا الربط.

– هاهاهاهاها.

يدور الكلام على الألسنة، ويخرج كل منا ما في رأسه بعفوية كأننا في احتفال كرنفالي، فنبدأ ندرك كلام كبيرة الراهبات عن الحياة المزروعة بعيدا عن ضوضاء الوادي وفرعونية السلطة وكل اللحان.

يُخرِجُنا من اندماجنا صوتُ الراهبات والصواني المحملة بالطعام. نتناول العشاء سويا بنهم في جو لا يبخل القمر ولا النجوم بشيء. يبدو أن الجو الشاعري يطلق الألسنة، فها نحن نتسامر بحكايات مصرية تتولد بتلقائية من هنا وهناك وكأنها ألف ليلة وليلة. تستأذننا كبيرة الراهبات في أن يتم تصوير جلستنا بالفيديو حتى تُخرس بها صوت اللحنة وتوصل من خلالها رسالة لمن يزعمون أنهم يتكلمون بأصوات مَنْ بالداخل. وإذا تعرّض الدير لمساءلة حكومية أو كنسية لأنهم لم يرحِّبوا باللحنة، يمكنهم أن يقدّموا شريط الفيديو دليلَ براءة. تقولها بسخرية، خاصة عندما تنغّم نطقها لعبارة "شريط الفيديو دليل براءة" كأنها تسخر من الأمر كله أو تضيف فاصلا من التعليقات فيما بين حكاياتنا. تتطوّع صحفيّة بيننا بتغطية الرحلة كلها في جريدتها، على طريقة أهداف سويف عندما ذهبت إلى فلسطين، ولكن بأسلوب مختلف، فنضحك جميعا وكأننا محاربون في فيلم أجنبي نجلس في وقت إيقاف إطلاق

النار لنتبادل الحكايات الشخصية والذكريات والأحلام المستقبلية في فترة ما بعد الحرب.

-٨-

وحدي أنا، لا أحد بجانبي ليقول لي شيئا، وكأن أذني لقيطة لا يحق لها أن يرعاها كلام أو همس أو لمسة رقيقة. وبالرغم من الأسياخ المجنونة التي زرعوها في جسد تل كان صديقا، تل صلبوه بالأسياخ كي يجعلوه جبلا، إلا أنني أحس ببصماته مازالت واضحة على هذا التل، كأنه كان هنا بالأمس معي، مع أن السنوات تفصلنا كأنها مبنى مُعتَقَل ضخم يمتد في كل أرجاء الصحراء الواعدة. تتلمس بصماتي بصماته، فأحس بأفرع الأشجار المتسلقة التل كأنها تَذْكُرُني وتَذْكُرُهُ، تلمس أقدامي في حُنُوٍّ فتسري في أوصالي رعشة الخوف الأولى، بيد أنني عندما أتذكر كلماته، ألقي بوجه لجنة الترقيات من على التل لتتساقط على وجوه الأمن المتحفزة أسفله (التي كانت تتوقع سقوطي) فيسيل الدم منهما وتختلط الدماء كأنها نفس الفصيلة.

أشتمُّ حركة الراهبة بجانبي كأنني ما تركتها منذ سنتين هناك في الدير وهي تنظر لي نظرة رجاء أو عطف. لا أستطيع تحديد مغزى نظرتها التي لا تفارقني وكأنها جزء مني أو كأنها نظرته. وأجدني أقوم بدوره معها وأشجعها على الصعود وسباق أفرع الأشجار المتسلقة التي تعاند الصخور والرمال والجفاف. أشعر بالغيرة عندما تبدو لي بصماتي على يديها كأنها بصماته. لا تخطئها لمستي بالرغم من فارق التوقيت وفارق المكان وفارق التجربة. تحكي لي. أسمعها جيدا، وبالرغم من اختلاط التجارب وما تحكيه عنّي، لا أستطيع تمييز حروف تجربتها عن حروف تجربتي، وكأن جلستنا على الحصيرة وسط الدير والجُمَلَ القليلة التي كنا نتبادلها بين لحظات الصمت كانت كافية للتعبير عن الكثير بأقل القليل.

تعاودني كلمات كبيرة الراهبات عن الحياة المزروعة في الدير الذي بوسط

الصحراء بعيدا عن الخضرة ومصالح الناس التي لا تميز العام عن الخاص. يمتد شريط كلماتها أمامي وفوقي على التل الصاعد بانبطاح تدريجي. لا أدري لماذا تختلط ملامح كبيرة الراهبات بملامح زوجي الغائب خلف الجدران والأسوار. كلاهما كان يزرع الحياة. لكن كبيرة الراهبات مازالت حياتها تمتد لتطعم آخرين. وحياةُ زوجي التي كان يزرعها بَتَرَهَا رجالٌ هبّوا فجأة على باب الحياة فبتروها في أولها وأخذوه وتركوني وحيدة وتركوه وحيدا، تفصل بيننا الأماكن ودرجات العذاب ولحظات التأمل المختلفة.

كان زوجي يقول لي إن الحياة تمتد من داخلنا - إذا تمكّنت منا أو تمكّنا منها - إلى خارجنا لتَهبَ الآخرين نفسَها دون أن نحسَّ بالنقص أو البتر؛ فإذا توقّفتْ داخلنا و لم تَمتدّ لابد أن يموت أحدنا. وأجد أنفاس الحياة في تتضخم وتنمو لتمتد إلى الراهبة المتسلقة بجواري وكأن كلا منا يحاول أن يتبارى للفوز بشيء يوزعه فيكفينا جميعا، وتمبني هي لحظةَ تأمُّلٍ أنا في أمسّ الحاجة لها؛ أتذكّرُ قمح الدير، ومتعة السياحة فيه، وكيف أنه لم يوضع على الخريطة السياحية؛ أتذكر كلمات الرب التي قالتها الراهبة؛ وعندما تَرِدُ على ذهني لجنة الترقيات أزيحها عامدة، ربما لأنها تختلط بلجنة الحريات الدينية، أو لأنني أتذكر نصر حامد أبو زيد وكيف أن لجنة الترقيات تحولت إلى لجنة "حريات" دينية يمارس فيها الأعضاء حرياتهم الهمجية في القضاء على حرية من المفروض أن تكون عادية.

أتأمل كل لحظة مرت بنا هنا وكأن السنين التي تفصلنا أبعدتْ نفسَها عن طريقنا وامتدت اللحظاتُ القديمة إلى الآن دون أن تجتثَّ ما أنا عليه أو تقتلَ حاضري، فبرغم البعد مازلْتُ قادرة على الحياة، مازلتُ قادرة على العطاء والصمود برغم البتر، مازلْتُ قادرة على تذكّر كل لحظات توحُّدنا سويا أو مع الآخرين، مازلتُ أحسُّ بأنني وهذه الأشجار التي تتسابق لبذر بذرة حياة في أعالي التل سواءً.

عندما أنخرط في تأمُّلي وفي استرجاع لحظاتي معه، يتباعد طيف الراهبة

لتسلك دربا خاصا بها، وإن كان يتقاطع مع دربي. تَبْعُدُ ملامحُ وجهها وكأن الملامح التي تحاول أن تستعيدها لا تنتمي للحظة الراهنة مثلي، وإن كانت هي كاملة الحضور، أمامي وفي حد ذاتها، أراها قمحا، وأراني قمحا، يكفي الجميع، فأتذكر يوسف والسنين العجاف، فأتساءل: كم من العمل المتواصل يكفي لنملأ بالخضرة سويا الأرضَ المُخَرَّبَةَ في الوادي؟ وكأن لحظات الزمن تتقاطع وتمتزج لتحدثنا عن النهوض وتستحث خطواتنا جميعا للأمام في تناغم لا يستبعد أحدا وبلا لجان.

وكأن الراهبة تجد صعوبة في التذكّر وصعوبة في الابتسام، فتعرج إلى تأمُّل دربها الخاص، تخاطب الريح، تتلمس جسدها، تترك يديها وقدميها لهمس الأوراق الخضراء. وعندما تعصف بها التناقضات، تتذكر المغزل والأشجار التي تنتظرها بالدير والأيقونات التي تتفنن في تشكيلها، تتذكر الماء الذي تروي به الأشجار من البئر، تتذكر جلسات الزائرين والزائرات على الحُصُر وسط الدير، تتذكر الراهب الذي أبعدت لمساته عندما فاجأها، مُفَضِّلَةً أن تحتفظ ببصمات قديمة في ذكرى وحياة تثري حياتها الأخرى، تتذكرني، وتتذكر زوجيً، تتذكر الحزب والأرض، تحنُّ إلى المدينة، تحن إلى نفسها، لكنها تتذكر أيضا أن حياتها ذات معنى، لم تنعزل، لم تتقوقع، فقط اتَّقت المعتقلَ بالحياة، كأن الدير حزبٌ يترك بصمته على الآخرين.

وأجدني أتأملها بالرغم من ابتعادها كأنني أتأمل ذاتي فازداد ثراء وإحساسا بالأحاسيس الجارية في مجرى دمي وكأن نهر النيل ينبع من قلبي فلا يستطيع قُرْصَانٌ أن يستولي على حصة أرضي أو يساومني على سدود، ينبع من قلبي أنا ويصب في أطرافي ليروي الحقول على تخوم يديّ وقدميّ، فابتسم وأواصل الصعود دون أن يغيب عن أذني صوت زوجي عندما كنا هنا سويا منذ سنين.

٣٠ أغسطس ـ ٢ سبتمبر ٢٠٠٩

لم ندفنه سويا

اشتدت الشمسُ فوق رؤوسنا ونحن في طريقنا إلى ذلك القصر. لم نجد شيئا نحتمي به من لهيبها سوى كوبري لم يكتمل بناؤه. لكن المشردين وأطفال الشوارع كانوا يحتلون كل بقعة من الظل و لم نجد سوى تقاطع الظل بالشمس.

نهضتْ امرأة من بيننا قائلة: "مادامت الشمس هنا وهناك سأصعد فوق الكوبري علّ نسمة هواء تخفّف حرارة الشمس، وسأستطلع لكم الطريق". أشارت لنا بيدها فَرِحَةً، ثم قالت بأعلى ما يمكنها من صوت: "أرى خيال مآتة هناك". تناثرت الأصوات بيننا:

- الشمس الحارقة تفعل أكثر من هذا.
- امرأة ناقصة عقل.
- لا يجوز أن تستطلع امرأةٌ الطريقَ.
- منَ أين لها بالبصر وهي لا ترى أبعد من قدميها؟
- يا جماعة ربما تكون على صواب.

عندما رجعتْ إلينا، كانت مهمومة. جلست صامتة لدقائق ثم تكلمت كأنها تخاطب نفسها: "هذا ما كنتُ أخشاه: ستنفجر الدماء هنا وهناك وستطغى على مياه النهر".

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- يبدو أنها جُنَّتْ.

- ألم أقل لكم إنها ناقصة عقل؟

- من تقوده امرأة سيغرق في بحر الدماء.

عندما هدأت الأصواتُ كانت حرارة الشمس قد خفَّتْ كثيرا ربما لتستعجل إكمال مسيرتنا. سبقنا المشردون وأطفالُ الشوارع ورجالُه ونساؤه. صُدِمْنا عندما وجدنا أعدادهم تفوق أعدادنا بكثير مع إننا بالملايين. كان المنظر أشبه بيوم الحشر الذي يصفه الشيوخ على المنابر. لم يمنعنا الجوع أو العطش من التَّقَدُّمِ. كانت أجسادنا تدفع بعضها بعضا. والغريب أن الغربان كانت تتجمع فوقنا كأنها ظنَّتنا ميِّتين وكانت تود لو تنقضُّ علينا لتجد شيئا تأكله. زادنا النظر قوة وتمسُّكًا بالحياة، فتدافعنا للأمام حتى نصل قبل أن نموت أو تتأسَّد الغربانُ.

كانت صورتُهُ مُلْصَقَةً على كل جدران القصر ولا تترك مساحة لصورة أخرى. وبالرغم من أننا فزعنا من صورته المتجهِّمَةِ وهي تحدِّق فينا في تهديد ووعيدٍ، لم نتراجع، فلم يتبقَّ أمامنا شيءٌ يمكن أن يضيع منا. لم ندرِ من أين جاء كل هذا العدد من المصوِّرين والصحفيِّين والمذيعين أمام القصر كأنهم كانوا يعرفون مسبقا بمسيرتنا وَوِجْهَتِنَا. كانوا يرتدون ملابس جديدة ولا يظهر عليهم جوعٌ أو تشرُّدٌ. فكرة احتياطية: إن لم نجد ما سنأكله، سيكونوا في متناول أفواهنا.

عندما مرَّتْ بعض السُّحُبُ في السماء وخفَّفت من سطوع الشمس التفتنا إلى أعلى القصر ووجدناه هناك واقفا كأنه تجسيد حيٌّ لكل تلك الصور. تنادينا بالثبات وعدم الفزع من هذه الصورة المرعبة. حاولنا أن نستفزه بأية طريقة. لم نجد أمامنا إلا بعض الحُرَّاسِ الواقفين كأنهم أصنام لا تتحرك من مكانها. اندفعنا نحوهم متكتِّلين ثم سحبناهم بحيث يكونون في مرأى عينيه وأخذنا ننكِّلُ بهم وعندما سالت دماؤهم أحسستُ بالرعب مما قالته المرأة التي استطلعت المشهد من فوق الكوبري. كانت الدماء تسيل وأدركتُ أنها ربما ستجرف كل شيء فعلا وهي في طريقها إلى النهر. لكنه لم يتحرك من أعلى القصر أو يصدر أوامر بإبادتنا إبادة جماعية كما كنا نتوقع. لم تمضِ دقائق إلا ووجدنا عربات مُحَمَّلَةً بكل ما نعرفه وما لا نعرفه من طعام قادمة نحو القصر. الله أكبر. تبارك الرب الإله. أصوات هتفت هنا. أصوات هتفت هناك. وانقضضنا جميعا حتى أتينا على كل ما في تلك العربات و لم يجد السائقون إلا الفرار عندما رأوا دماء الحراس نافرة على الأرضية أمام القصر. سرى الطعام في أجسادنا وأحسسنا بكل قوانا التي ضاعت منا طوال السنوات المشئومة وقد عادت إلينا. كان وَضْعُنَا أشبه بالمُحَاصِرين، لكننا لم نحس بوجود مَنْ نحاصره كأننا كنا نحاصر مقبرة قديمة نسيها الزمنُ و لم تعد حتى الأشباح تظهر فيها.

عندما لم نجده يتحرك هتفنا بسقوطه وحاولنا أن نستفزه بكل الكلمات والهتافات والأدعية، لكنه لم يحرِّكْ ساكنا. كان في برودة أعصابه المعتادة، بل صار ثلجا لا تذيبه الشمس. لم ننتظر طويلا. انهال علينا الرصاص فجأة كما

لو كان كمينا نصبه لنا أشخاص لا نراهم. تدفّقت الدماءُ لتلتحم بـــالطريق إلى النهر.

- لا تتراجعوا.
- إن مات نصفنا سيكون على الأقل هناك أمل في حياة الباقين.
- لا نريد لحوما ولا دجاجا نريد سكنا وخبزا.
- من يمت على الأقل سيموت كريما ويدخل الجنة، من يعيش ســيجد الخبز ويعيش حرا.

لم يسكن الرصاص إلا بعدما فاض نهرُ الدم. وعندما لم يجد مَنْ يطلقونه شيئا متبقيًّا معهم قفزوا بالمظلات كأنهم ينتحرون في نهر الــدماء. تلقّفتــهم الأيدي المتبقية وداستْ عليهم بالأحذية إلى أن غرقوا فعلا في النهر. توقّفت الأيدي فجأة عندما انفجر صوتُ أحد المصوِّرين وهو ينادي علينا ليزفَّ لنا بشراه. قال: "من يريد أن يرى خيال المآتة يدفع جنيها". وبما أننا لم يكــن معنا شيء، ربطتُ يدي التي بُترَتْ لتوها بقميصي القديم واندفعتُ نحوه قائلا وأنا أفكر في المرأة التي أنبأتنا به من فوق الكوبري و لم أستطع أن أعثر عليها في تجمُّعِنا هذا أمام القصر: "وماذا تعطي من يدُلُّكَ على من سَــبَقَكَ وأن أخبارك قديمة؟" سقط من الصدمة واندفعنا نحو الكاميرا ونحن ننظر من ثقبها إلى أعلى القصر كما كان يثبتها ووجدناه فوق القصر خيال مآتة كأنه فارق الحياة منذ سنين. وعندما أدركنا أننا ضُحِكَ علينا اندفعنا نحو بوابة القــصر، فاندكّتْ تحت أقدامنا وتوغلنا نبحث عن أي يد باطشة لكي نكسرها ونقيم محلها أيادينا حتى ولو كانت مبتورة.

١٢-١٤ فبراير ٢٠١٠

طقوس العبور

بالرغم من أنني كنتُ أتوقع ذلـــك، إلا أنـــني أحســـستُ بالغـــضب والانبساط في الوقت ذاته. كان محمد منير يتغني طوال الطريق:

برة الشبابيك غيوم،

برة الشبابيك مطر،

وأنا خايف خايف وحاسس بالخطر.

كانت الغيوم تخطر من زجاج السيارة، لكنها كانت تـــضنُّ بـــالمطر، وكان سوادُها يحاول أن يزرع الكآبة في صدري، لكن "على مَـــنْ؟" وأنـــا الذي لم أسمح طوال عمري لشيء أن يُخَبِّطَني. كنتُ أحس بالخطر فعـــلا، لكنه كان إحساسا يجعلني فقط أدرك ما حـــولي، دون أن يتعـــدى ذلـــك ليتسرب إلى داخلي. ومع ذلك نَمَتْ بعضُ الأسئلة في رأسي. كانت السيارة تحتي نائمة، أو فارقتها الحياةُ. لم أكن أعرف على وجه اليقين ماذا أصـــابها. تركتُ الأسئلة تتسرب إلى لساني كي لا تظل حبيسة بالداخل فتنفجـــر فيّ كما انفجرت هذه السيارة: لماذا تعطّلت هذه المُشاكسة الآن؟ ألم يكن من الواجب عليها أن تؤجِّل استراحتها قليلا؟ من فوق هذا التلِّ لا أرى أحدا، قريبا أو بعيدا؛ لا أرى سوى سيَّارتي نائمة عند السفح كأن السماء ذهبـــت بالشمس وجاءت بالقمر، مع أن الشمس أخذت أكثر من وقتـــها. هـــل ضللتُ الطريقَ أم أنني أتوهَّم عُطلا وطريقا واقفة وتلا أجلس عليـــه حتّـــى أُبصر أحدا أو مكانا مأهولا بالبشر وتتناوب عليه الفـــصولُ؟ كُـــفَّ عـــن

التفكير الآن ووفّر طاقتك لك. تحسَّسْ موضعَ قدمك على الصخور النازلة وافتح باب السيارة لترتشف رشفة من زجاجة الماء.

– أمسكْ بيدي يا عم.

– لستُ عمَّك وأنت من تُمسكُ بكَ.

– يا عم، هل أنا أراك أصلا؟ ألم يُحدِّث الشاعرُ الجاهلي نفسه؟

– يا سيدي وما شأني أنا؟ كلِّمْ نفسك كما تشاء حتى ولو جُننْتَ.

– عادي. سأكلِّم نفسي. وهل هناك أحد أقربُ إليَّ منها؟

قلتُ: لا بأس. من الأفضل أن احتفظ بزجاجة الماء معي، خوفا من أن تشربَها هذه السيَّارةُ الخارجة عن الخط. سآخذ أيضا هاتفي وبطاقتي، وبالرغم من أن الشبكة هي الأخرى اختفت تماما و لم يعد لها أي أثر، قلتُ: ربما يرسل النسيمُ إرسالا في لحظة ما. لن ينفعني أن أظلَّ مُتفحِّصًا الأفق من فوق هذا التل، ولن تنفعني تلك السيَّارة المتمرِّدة أو المرهَقَة. ماذا بيدي الآن؟ أذكر أن مسافة طويلة جدا تمتد من هنا إلى أوَّل مَخرج دخلت فيه السيارة كأنه كان نفقا مُظلمًا، فلا سبيل أمامي لأن أعود ماشيا، ولا رؤية أمامي لأن أواصل السير إلى حيث لا أرى ملامح. أهلا بالبشائر. أول الوحوش فأر أو أرنب برِّيٌّ. تماسكْ يا فتى. لا تنتفض من أول منظر! ها أنت وحدك ولا أحد يَبينُ في أفقك. وعليك أن تحتفظ بطاقتِكَ وقوَّتِكَ إلى حين مواجهة لا تعلم وقتها أو مكانها.

جاء غراب وحطَّ بجانبي. نظر إليَّ بتمعُّنٍ وتمهُّلٍ كأنه يحاول أن يقرأ كلمات ليست واضحة على جبيني. في البداية لم أُعِرْه اهتماما، فالمنطقة صحراوية وليس بمُستغرَبٍ أن تظهر الغربان فيها. أذكر في مكان آخر وأنا

أجلس على مكتبي كنتُ أرى الغربان فوق الأشجار داخل السور بالرغم من أن المبنى كله وسط المدينة والعمران. كانت الغربان هناك ترث المكان منذ أيام الحرب. استغربتُ في البداية من أن السويس تحتلها الغربان. منعتُ نفسي من التشاؤم، إذ أنني ساعتها كنتُ أظن أنني سأظل أعمل بالكُلِّيَّة هناك طوال عمري. ومادامت مهنتي سترافقني بمكانها طويلا، رأيتُ أن التفاؤل سيخفف قليلا أو كثيرا من ألغربان التي تسكن الأشجار العتيقة وتطل عليَّ من نوافذ القاعات كأنها تراقبني أو أنها تعمل مع حرس الجامعة. وفي الوقت ذاته استهجنتُ فكرة أن ترث الغربان المكان لمجرَّد أنها كانت شاهدة على جثث الشهداء أو لمجرَّد أنها طهَّرت المكان من ديدان جثث شهداء كان بإمكانها أن تغرس الوباء بالمكان.

نظرتُ إلى الغراب الذي حطَّ بجانبي، لكنه لم يُخفِضْ بصرَه و لم يطِرْ بعيدا. انتفض جسمي فجأة وكدتُ أسقط من ارتفاعي عندما سمعتُ صوتا غير صوت الريح الذي كان يئز في أذني:

– ما الذي ألقاك هنا يا إنسان البَيْنِ؟

إنسان البين! يا الله! حتى في ساعاتك التي ربما كانت أخيرة تتأمل العبارات. وددتُ لو أتفحَّصها، أتفحَّص صورة "إنسان البين" وأتأمل تشابكاتها، لكن خوفي أو فزعي أو قشعريرتي سطتْ على كل تفكيري و لم تترك لي فرصة لتأمل عبارة أسمعها لأول مرة. شككتُ في أن الغراب هو الذي يقولها، وأنه يحاول أن يردَّ تاريخا من التصاق العبارة به. حاولت أن أبتسم، لكنني وجدت نظرتي تتحول إلى التساؤل والاستفسار، ووجدتُه يهز لي رأسه كأنه يؤكد هواجسي:

- هل تعتقد أيها الإنسان أنك أنت الوحيد الذي يستطيع أن يتكلّم؟

و لم يمهلني الوقت حتى أردَّ على استفساره أو أُمَّمَ على تقريره، فواصل دون أن يأبه بي:

- الأنبياء فقط هم القادرون على أن يصلوا للغتنا.

وعندما وجدني أتشنج، قال لي:

- لا تخف. لن آكل جيفتك، وأتمنى أن تمرَّ اللحظة التي أجدك خارجـا من هنا سالما.

طار بعيدا عني، دون أن أستطيع أن أحاوره أو أشكره أو حتى أبادلـه الكلام. وجدته يحطُّ على شجرة بعيدة أبصرتها جافة ورأى الغـرابُ فيهـا حياة فأخذ ينتقل بين الفروع كأنه يبحث عن موضعٍ ما أو شيء يعرفه هو ولا أراه.

لم تستطع مُخيِّلتي بجبروتها وحيَلِها التي لا تنفد أن تتوصل إلى تصوُّر ولو جزئي عما يمكنني أن أفعله. رفعتُ يدي من على وجهي وفتحـتُ عـينيَّ وأطلقتهما في الأفق. فقط أشباح رياح هنا وهنا تتلاعب بالرمال والغبار، أو تُطيِّر الأعشاب المتيبِّسة كي تؤجِّجَ صوت الهواء عندما يمر من بينها.

لم أستطع أن أستمع إلى صوت جناحي الغراب وهو يقتـرب مـني، ووجدته يحط بجانبي ويُسقِط ثمرة من منقارية بالقرب من يدي قائلا:

- هذا كل ما استطعتُ أن أجمعه لك.

حاولتُ أن أشكره، ولكنني لم أجد صوتا يخرج من فمي. كان صـوته فقط الذي أسمعه. حاولتُ جاهدا أن أحرك لساني أو شفتيَّ أو فكّيَّ، لكنهم عصوا أمري جميعا وخذلوني. قال:

- لن تستطيع أن تتكلم في حضرتي ولا أستطيع أن أفعل لك شيئا أكثر من هذا. ليس بعيدا، هناك، إذا اتجهتَ للأمام في نفـس خـط سـيرك، ثم انحدرت مع التل يمينا، ستجد ماء يمكنه أن يستبقي أنفاسك لأيام إن شاء الله أن يكتب لك عمرا جديدا.

وبالرغم من أنني كنت أدرك أنني لا أستطيع الكلام، أصـررت علـى تحريك شفتيَّ ولساني كأنني أسمع صوت شكري لـه، ومـا إن خرجـت الكلمات من فمي حتى لم أتبين له أثرا.

تحسَّستُ الثمرة في يدي وشممتُها. لم أستطع أن أجد رابطا بين لونها ورائحتها من جهة وبين ذاكرتي البصرية والشَّمِّيَّة من جهة أخـرى. كـان طعمها مقبولا أشبه بالنقطة الوسطى بين الحلاوة والمرارة. كانت لاذعة وفي نفس الوقت مألوفة. استبقيتُها في فمي لدقائق. لستُ أدري لماذا استبقيتها، لكن يبدو أنني حاولت أن أُسجِّلها في ذاكرة لساني بتأنٍّ، وربما كنتُ أحاول أن أحتفظ بها في فمي كي لا تنفد من جهة وكي تحسَّ معدتي مـن جهـة أخرى أن هناك شيئا سيترل إليها بعد حين.

وما إن انطلق الغراب حتى وجدتُ السماء كلها مُسَوَّدَةً بالغربان كأنها ستتساقط بعد قليل غربانا صغيرة تزرع كل هذه الرمـال الممتـدة حـولي بالطيور الناعقة. لكن الثمرة كانت في يدي وكان طعمها مقبولا: ليس شهيا

ولا ماسخا. أحسستُ بدوام طعمها في فمي كأنما تطعمني إلى أجل غير مسمّى.

أدركتُ أن القلق لابد وأنه بدأ يسيطر على عائلتيَّ: عائلتي التي كنتُ معها واستأذنتها في السفر وعائلتي التي كنت سأصل إليها في نهاية هذا السفر. أمسكتُ هاتفي ولاستغرابي الشديد وجدتُ مؤشر الشبكة في قمّته. فرحتُ كثيرا وبحثت عن الأرقام. أخذت أطلب. لم يرد عليَّ أحد من أبنائي، بل أن الشبكة ذاتها لم تتعرف على الرقم. كل مرة تقول "بحث خاطئ. أوشكتْ محاولاتكَ على النفاد". جرّبتُ كل الأرقام وكانت نتيجتي واحدة: "بحث خاطئ". فكّرتُ من باب الاحتمال – ولو أنه احتمال بعيد – أن أضع كود بلدي قبل الرقم، فربما كان انزلاق عجلات سيّارتي قد قذف بي خارج الحدود. وجدتُ الشبكة تستنكر إضافاتي وتقول لي: "محاولتكَ خطأ في البحث وما تحاول الاتصال به ليس موجودا". عضضتُ إصبعي. لم يتغيّر الحال. حككتُ جلدي بأظافري. لم أُفقْ. فكّرتُ أن أخبط رأسي في صخر التل، وتراجعت، فكل الأدلة تقول بأني لستُ نائما، وكل الأدلة أيضا تقول بأن كل هذا ليس حقيقيا. ووقفتُ في مفترق الطرق أبحث عن مأوى.

عندما وصلتُ إلى النهاية المؤقتة للتل، أو الفتحة التي تبدو مقتطعة من امتداده، كما قال لي، من الذي قال لي؟ لستُ أدري، ولا أذكر إلا غرابا كان يقف بجانبي وذهب بعيدا وجاء لي بثمرة، المهم أنني نفّذتُ وصيّة الصوت أو نصيحته، حفاظا على حياتي لا غير، فيبدو أنني سأمكث هنا بعض الأيام إلى أن أخرج من هذا الحلم الطويل أو أصحو عائدا إلى أهلي.

وجدتُ بعض الرجال والنسوة جالسين يتحدثون فيما بينهم. ألقيت عليهم السلام وردوا عليَّ في دفء دون أن يستغربوا وجودي أصلا، داعين إياي بالجلوس وتناول مشروب لم أستطع أن أتبينه، لكنني في نفس الوقت أحسستُ بأنهم يعرفونني جدا بالرغم من أنني لم أرهم من قبل، وأحسست بأن دعوتهم عادية كأنهم يرونني أمرُّ كل يوم هكذا وربما كنتُ جالسا معهم منذ ساعة مثلا أو بالأمس. لا أدريُ لماذا شكرتهم وانصرفتُ عنهم بالرغم من أنني كنتُ أريد مشروبا فعلا، أو على الأقل كنت أود أن أجرب الجلوس بينهم أو الإحساس بدفء يطرد برد الوحشة في هذه الصحراء. لكنني مضيت دون أن أعرف السبب.

وجدتُ بالقرب منهم جالونات بلاستيكية للماء فتهللتُ وأمسكتُ واحدا. وكانت بالقرب من الجالونات طرمبة مياه. في البداية استغربت من وجود هذه الطرمبة في الصحراء، فما أعرفه أن هذه الطرمبات توجد في المناطق التي يكون منسوب المياه فيها قريبا من سطح الأرض. لكنني تذكرت أيضا بحثا كنتُ أراجع لغته لأحد المنتفعين الذين يقتربون منك ويمضون إلى آخرَ بمجرد أن تقضي لهم مصلحتهم يقول إن الصحراء الغربية كانت مليئة بحمّامات السباحة وكانت المياه موجودة في كل مكان. وبما أنني كنت أسير بسيّارتي على الطريق الصحراوي الغربي، ركنتُ استغرابي جانبا وسرت باتجاه قبول وجود طرمبة المياه في هذا المكان. استبشرتُ واقتربتُ منها. لم أرَ لها يدا. بحثتُ عن يدها في كل جوانبها، وعندما دققت النظر وجدتُ أنها طرمبة حديثة جدا: فقط عليَّ أن أدوس على زر مكتوب عليه "اضغط هنا" لتخرج منها المياه. ضغطتُ عليه وإذا بالماء يخرج جالبا معه كل الوعود والآمال في غدٍ سيجيء إن شاء الله عليَّ حيًّا.

ووجدتني أكمل طريقي. تذكّرتُ أنني كنت قد جئتُ بحثا عن الماء وأنني استمعت إلى نصيحة صوت ما، وفكرت في العودة، لكنني تذكرت أيضا أنني ليس لي مكان أعود إليه، فلا التل مكاني ولا السيارة بمأمن لي وسط كل تلك الرمال والتلال والرياح العاوية، فعلى الأقل هنا توجد وجوه تنظر إليّ نظرة أليفة كأنها تعرفني. استغربتُ من مقارنتي بين هنا وهناك بالرغم من أنهما امتداد واحد من الصحراء الفسيحة المفتوحة. لكنني تذكرت "بروميثيوس"[5] أعلى التل أو الجبل وعذابه الأبدي بالرغم من قوة عزيمته وإيمانه بمبدئه، ولكن ما الداعي لي لأن أجالس تلا لا يوجد فيه إلا صوت لا يمكنني أن أبادله الكلام. كما أن سيارتي بتخاذلها معي ذكّرتني برواية "رجال تحت الشمس" لغسّان كنفاني وخشيتُ إن رجعتُ إليها أن تحتفظ بي داخلها إلى أن أموت بحثا عن شيء في مكان مغلق لا يوصل إلى أي اتساع أو امتداد. لا أدري لماذا أوصلتني صورة السيارة المتوقفة إلى صورة هيرا الباحثة في مسرحية "ميكانو" لنجاح عبد النور، ففضلتُ مواصلة البحث، ولتكنْ هذا الطرمبة نقطة البدء. تذكرت أيضا أنني صلّيتُ الظهر والعصر جمْعَ تقديم قبل أن أنطلق بسيارتي أو تنطلق بي. وبالرغم من أنني كنت أشعر أن وقتا طويلا جدا قد مرَّ عليَّ منذ أن بدأت سفري، إلا أن الشمس لم تغبْ بعد، فلا العصر لحق به مغرب ولا المغرب أطاح بالعصر. لكنني أحسستُ برغبة في الصلاة. تراجعتُ خطوات إلى أن وصلت إلى الطرمبة وتوضأت، مستمتعا بملامسة الماء لجسمي، وأحسست بالماء يستمتع بي أيضا كأنه شقّ كل هذه الطريق تحت الرمال ليصل إليّ.

[5] بروميثيوس Prometheus شخصية في الأساطير اليونانية اشتهر بوصفه سارقا للنار من الآلهة ومنحها للبشر لكي يبدءوا حضارتهم الإنسانية، والإشارة هنا لمسرحية شيلي Shelley "بروميثيوس طليقا" التي ترجمها لويس عوض للعربية.

نظرت إلى الشمس، فوجدت أنها لا تنوي الغروب أو النوم قليلا لتستطيع أن تواصل رحلتها الأبدية. لم أستطع أن أستوعب استحواذ الشمس على الأفق. خطرتْ ببالي فكرة أنني مُتُّ وها أنا الآن في رحلة ما بعد الموت. ولكنني تذكرتهم يقولون إن ما بعد الموت ظلام إلى يوم القيامة ولا يتخلل هذا الظلام إلا الحساب بما فيه من عذاب أحيانا. وعندما أدركت أنني أنا فقط الذي أحاسب أفكاري من حين لآخر أو أقارن بين أشياء غائبة وأشياء حاضرة، نفيتُ فكرة الموت من رأسي مؤقتا بالرغم من أنني كنتُ أحسُّ بأنني قد أموت أو أُقتَلُ في أية لحظة في مكان لا أعرف عنه شيئا ولا أستطيع التكهن بما قد أجده فيه.

عاودتني الوجوه الأليفة، أحسست بأنها ربما تعرفني وأنا أعرفها، لكن ذاكرتي تخلّت عني و لم تستحضرها. جال ببالي هاجس يسرّب إلى رأسي فكرة أنني فقدتُ ذاكرتي بالأمس. ضحكتُ كثيرا من فكرة الأمس، فأي أمس أو يوم أستطيع أن أحدده والشمس لا تغرب وبالتالي لا تشرق. و لم أعرف إن كان قد مرَّ عليَّ يوم منذ انحراف السيارة أم ماذا، خاصة وأن بطارية هاتفي قد نفدت بالفعل في محاولاتي لأن أتصل بأي أحد.

اتجهتُ إلى الجالسين بالقرب من الطرمبة. سألتهم عن القِبْلَة، لكن كل واحد منهم أشار في اتجاه مختلف. نظرت إليهم متأملا: وجدتهم متآلفين تماما، فاستغربتُ من إشاراتهم المتباينة. شكرتهم على كل حال وردوا على شكري بابتسامات تتراوح ما بين التهوين والاستغراب. فكّرتُ أن أجعل الشمس على يميني في وقت من المفترض أن يميل فيه النهار إلى الانصراف، لكن الشمس كانت فوق رأسي ولا تحرقني، بل لا أشعر بحرارتها. كان عليَّ

أن أصلي بعد أن نويتُ الصلاة. فأعطيتهم ظهري وأخذتُ أصلّي صلاة على هيئة أزواج من الركعات المنفصلة.

فَرِحْتُ كثيرا عندما نظرت إلى هاتفي ووجدت بطاريته قد عادت مشحونة إلى آخرها. وجدتُ مكالمات كثيرة فاتتني، لكنني لم أستطع أن أتعرف على الرقم أو حتى على كود البلد الذي تم طلب هذه المكالمات منها. وجدت رقما يحاول الاتصال بنفس كود الأرقام السابقة. ضغطت على زر الردّ، ومع ذلك لم أستطع أن التقط صوتا، فقط بعض الهمهمات التي تكاد لا تبين. قلتُ: فلأجرب أن أطلب الرقم ذاته من هاتفي، لكن رسالة "الرقم غير متاح" صمّت أذني كأنها تعاقبني على الاتصال أو أنها تحذّرني من معاودة الاتصال في وقت لاحق. أحسستُ برغبة ملحّة في الضحك، فضحكتُ وتدحرجت إلى أن وجدت نفسي عند مجموعة من الحنفيّات العمومية تخرج من جدار لا يُظهر ما خلفه. أنزلتُ الجالون الذي كنتُ قد ملأته من الطرمبة وجلستُ بجانب الجالونات الكثيرة الفارغة التي كانت تناديني بجوار هذا المُجَمَّع من الأنهار الصغيرة. نظرت إلى الجالون الذي ملأته وتذكرت التقارير عندما كنت في عالم آخر. أضحكتني فكرة العالم الآخر بالنسبة لي الآن؟ فهل ابتعادي عنه لمدة يوم ونصف على الأكثر – بالرغم من أنه يبدو بعيدا جدا الآن ولا سبيل للوصول إليه – يجعله عالما آخر بالنسبة لي؟ لقد كنتُ في بلدي، ويُفترضُ الآن – بالرغم من أنه لا يوجد شيء أمامي يجعلني أصدّق هذا الافتراض – أنني مازلتَ موجودا ببلدي، فعلى الأقل لم يقابلني ضابط جوازات أو يسألني أحد عن هويتي. ضحكتُ أكثر عندما تذكرت أنني لم أقابل أحدا أصلا. وضحكتُ أكثر وأكثر عندما تذكّرتُ الضابطَ الذي صعد إلى أتوبيس الجامعة بالرغم من

شارة الجامعة المرسومة بالحجم الكبير على ذلك الأتوبيس، وأخذ يسأل عن بطاقات هويتنا و لم يعترف ببطاقاتنا الجامعية، وكأن الجامعيين مُشْتَبه فيهم أصلا.

كنتُ قبل أيام أقرأ على المواقع الالكترونية التقارير عن الطرمبات الحبشية وفيروس سي والالتهاب الكبدي الوبائي. قررتُ كمواطن صالح أن أفرّغ الجالون من الماء، وملأته من إحدى الحنفيّات، فلابد أن المياه بها معقّمة بالكلور ومطهّرة. استبشرت لوجود كل البدائل وحملت الجالون الذي وجدته متناسبا مع يدي، فلا هو بالثقيل الذي يجهدها ولا هو بالخفيف الذي تتلاعب به الرياح التي كانت تعوي فوق التل ولا آمنُ الآن أن تعود إلى عوائها.

نظرتُ إلى الوجوه الأليفة. وجدتهم بعيدين جدا كأنني فارقتهم منذ سنين وأنظر إليهم الآن من منظار يمنحني صورا باهتة لهم. أحسستُ بحنين يَسْري في عروقي وكأنه يريد أن يخرج من هذه العروق ويصل إليهم. استغربت من فكرة الحنين ذاتها، فما أعرفه أن الحنين يكون إلى أشياء أو أشخاص بعيدين في الزمان أو في المكان، وأكاد أجزم أنهم لا يبعدون عني بأكثر من نصف كيلو متر وأنني كنتُ بالقرب منهم منذ ساعة على الأكثر. تذكّرت محمود درويش ومارسيل خليفة وأحن إلى خبز أمي وقهوة أمي، وبالرغم من أن أمي لا تشرب القهوة ولا تعرف كيف تُعدُّها، إلا أنني كدت أبكي، ووجدت الدموع تحتبس في عيني كأنها تخشى أن تغرقني إذا فاضت. أذكر أنني حاولتُ الاتصال بأمي قبل أن أركب سيارتي على طريق السفر إليها، لكنني وجدت الهاتف صار من ضمن الأشياء التي قسّمها إخوتي

فيما بينهم وتُركَ الخطُّ مفتوحا دون أن يوصلني أحدٌ بها أو أسمع صوتها. شعرتُ بالحنين يزداد، لكن كيف السبيل إلى إشباع هذا الحنين وأنا لا أعرف لي مكانا أصلا ولا أعرف كيف سأصل إلى منبع حنيني؟ بذلتُ المزيد من التركيز، فرأيت الوجوه تنصرف، كل في مكان. راودني إحساس بالندم على تركهم، وفي الوقت نفسه كان هناك صوت يواسيني بأنني لا أعرفهم أصلا وأنني جئتُ هنا أصلا بحثا عن الماء وما بعد الماء. تشكلتْ في رأسي سطور قصيدة وجدتني أحفظها كملفٍّ بكلمة سِرٍّ لا سبيل للقراصنة للوصول إليه:

شيء عادي أن تكون هنا
شيء عادي أن تكون هناك،
أن تتوزَّع خطواتُك على آلاف الطرق
وأن تواصل السير إلى مبتغاك،
شيء عادي يا صديقي
ومبتغاك يصاحب التشكُّلَ كمياه النهر
ولا يواعد بحيرة متجمدة
تحنِّط رأسَكَ كصنم يتأبَّد في الأرض كالجبال،
شيء عادي أن تتقاسم الأراضي والأوقاتُ خطاك
أن تزرع في كل أرض أغنية
وتتركها ليحصدَ أوراقَها المتجددةَ غيرُكَ،
لكن ليس عاديا أن تتوقف السيَّارة عن النبض
فهي ليست ملكا لك وحدك
وليست حكرا على أحد،

ليس عاديا أن تُنْفى خطاك
فلا تستطيع أن تحُطَّ على أرض الحنين
أو تتدلى على صدر النهر أنشودة حُبٍّ،
ليس عاديا أن تنزف خطاك على أرصفة غيرك
وأن يُقصَّ لسانُكَ على أرضك،
ليس عاديا يا صديق
أن يستنزفك الحنين
إلى أن يحترق قلبك
فتتبدَّل حُجُراته ليتواصل الاستنزافُ إلى ما لا تعلم.

أكملتُ سيْري واستبشرت أكثر عندما رأيت حنفية مياه مُبرَّدة. لم أسكب ما بيدي من ماء، فقد احتاج يوما أو ساعة إلى هذه المياه التي كنتُ قد نويتُ أن أسكبها وأستبدلها بمياه مبرَّدة. استبشرت بوجود كل الإمكانات والاحتمالات هنا. وقلتُ: إن خطوت خطوتين للأمام سأكتشف أحدث التطورات في تكنولوجيا المياه، فلقد مررتُ بالطرمبات ثم الحنفيات العادية، ثم مُبرِّدات المياه. و لم أفرِّغ الماءَ.

واصلت خطواتي. بدأت الدنيا تسودُّ فجأة وبدأت النسمات الخفيفة تتمرَّد. ووجدت نسمات لافحة حارقة تصفعني على وجهي. انتهى طريق الماء تماما، ووجدت نفسي أدلف من باب انغلق بإحكام خلفي. لا مياه، لا وجوه، لا طيور. كل ما كان هناك عبارة عن مقاعد رخامية جلستُ على أحدها، فأحسستُ بأنها عينُ موقدٍ وأنني وجبة شهية لأحد يتلاعب هنا بالنار ويُبعد المياه والوجود ويستوطن الأرض بالخراب والرخام الحارق.

وجدت الجالون الذي في يدي بدأ ينكمش ويتكرمش وسرعان ما ذاب تماما ووجدتُ الماء تبخَّر كأنه لم يكن.

طأكان لابد أن ينغلق ذلك الباب في ظهري وأن تشويني كل هذي المقاعد الرخامية وكل هذي الأشجار التي تُخرج لي أنيابها كأن أغصانها ستمتد وتصطادني؟ لم أدرِ كيف كنتُ أتقلّب من حفرة إلى أخرى وكيف كنت أتملّص من كمين وآخر. استوقفني رجلٌ غريب اللسان كأنه جهاز الكتروني متطوِّر جدا لم يتم الإعلان عنه أو تسويقه بعد. وفي الوقت ذاته كنتُ أذكر أن كل المنتديات كانت تتحدث عنه وتمهِّد لخطواته. دقّقتُ النظر فيه. تبيَّنتُ خلف مظهره الغريب ملامح أليفة كانت بنتي ترسمها في رسوماتها العفوية بألوان طبيعية مصغَّرة وتعلِّقها على أبواب الشقة عندما كانت بلدي تلعب في دورة الأمم.

لم أفاتحه بالكلام، خاصة وأن الحرج بدأ يتسكَّع في دمي عندما أخذ ينظر إليّ نظرات طويلة. وعندما أحسستُ بأن تيَّار الخجل بدأ ينصرف في الحفرة التي تفاديتُ السقوط فيها، قال لي:

– أهلا وعلى سكّة السفر.

لم أستوعب كلامه في حينه. فهمتُ الترحيب، ولكنني وجدت غموضا في "وعلى سكة السفر". هل كان لا يتقن اللغة وأضاف "الواو"، أم أنه كان يستخدم لغة مجازية لا تُستخدم بين الغرباء عن بعضهم البعض، غرباء على الأقل في اللقاء وليسوا غرباء في الأفكار المبهمة أو الأحاسيس الرمزية، فلقد كنتُ أدرك أنني رأيته من قبل – حتى بعيدا عن رسومات بنتي – سواء أكان ذلك في الواقع أم في الحلم؟

حاولتُ أن أحسَّ نبضه، فرددتُ عليه بعد صمتٍ: "أهلا وعلى سكة السفر". فرأيته ينقلب أمامي كمارد خرج من كتاب قديم وهمَّ أن يعصف بي، كأنه كان لا يريد مني أن أكرر كلامه، أو أنه كان يود أن يسمع كلاما خاصا بي أو مجازا لا يقل إبداعا عن إدخاله لحرف الواو في تعبيره الذي يرحِّب بي. فلقد كان وجهُه ماءً رائقا وتحوَّل إلى حمرة كادت تنفجر فيَّ. أحسست أنني لابد أن أعتذر وإن كُنت لا أعرف ما الذي ينبغي عليَّ أن أعتذر عنه. لكن حدسا راودني بأن الاعتذار وسيلة لامتصاص غضبه وعودة وجهه إلى الماء الرائق من جديد:

– معذرة لم أقصد إغضابك.

لم يتكلم وأخذ يعبث بأصابعه، ناظرا إلى البعيد كأنه لا يراني أو كأنه يريد أن يسرِّب غضبه قبل أن يتكلم معي ثانية. أحسستُ بحكمة في صمته وأنه من نوعية الناس الذين يدرسون كلامهم وأفعالهم جيدا قبل أن ينخرطوا فيها. راودني حدسٌ بأن تصرفاتي محسوبة عليَّ وأن موقفي هذا سيوصلني إلى وضع أفضل. أحسستُ بأن الهاتف سيعاود الرنين بعد وقت قصير وأن بإمكاني أن أصل إلى أمي. ووجدت نفسي ساكنا في مكاني، لا أستطيع أن أتحرك، فلا آمن موضع خطوة لي قد تسحبني فيها يدٌ إلى حفرة لا أراها وقد تقفل الباب الذي لا أراه أمامي. باب أشعر أنه في نهاية هذا الطريق الغريب. إن كان الباب قد انغلق خلف ظهري عندما عَبَرْتُ إلى هذا المكان الذي لم أتخيَّله قط ولو حتى في كوابيسي، فلابد أن هناك باب آخر. لا يمكن أن تسير الحياة في مستطيل هكذا. من المؤكد أن هناك باقي الأشكال الهندسية

الأخرى ولابد أن يجيء طريق يتقاطع مع طريق وأن تدب خطوتي في موضع غير مواضع الحُفَرِ.

تدرَّجتْ كل هذه الأفكار في رأسي وهو لم يفرغ بعد من العبث بإصبعه. وجدته يلتفت إليَّ فجأة وهو يقول:

– كم حفرة تفاديتَها؟

لم أستطع الإجابة عليه ووقفتُ صامتا محاولا أن أخترع إجابة تكون شافية على قدِّ سؤاله الذي لابد أنه لا يقل مجازا عن عبارته التي استخدمها للترحيب بي. تأملتُ كلامي جيدا وتأنَّيتُ في صياغته كي يصدُقَ حدسي وكي لا يلقي عليَّ هذا الرجل الغريب الأليف أسئلة أخرى غير متوقعة قد تورِّطني فعلا ولا أستطيع بعد عجزي عن الإجابة الخروج من هذا المستطيل. فلقد شعرتُ بأن هذا الموقف امتحان كبير أو ابتلاء لابد أن أخرج منه ناجحا وإلا انتهت حياتي ودفنت معها كل توقعاتي ورجائي وحلمي باحتضان أمي من جديد بعد سنوات كادت تفقدني ذاكرتي. قلتُ له:

– تفاديتُ حفرا بعدد ربع حِيَلي وعُشر توقُّعاتي وأحلامي القادمة.

ابتسم ابتسامة فيها قدر من الرضا وقدر من المكر وقال لي:

– هل مسَّكَ نابٌ من هذه الأنياب الرخامية؟

وأشار بيده إلى المقاعد التي تصطفُّ على الجانبين كأنها تنتظر أحدا لا يبين أو كأنها تُعَسْكِرُ انتظارا لظهور العدوّ دون أن يظهر ودون أن تخلد هذي الكراسي إلى النوم ولو لساعة واحدة. نظرتُ إلى الكراسي وتذكَّرتُ لسعاتها عندما كنتُ لا أعرف شيئا بعد أن انغلق الباب في ظهري. وسرعان

ما تعلَّمتُ الدرسَ وابتعدتُ عن هذه الكراسي كي آمن مكرها أو أردَّ على مكرها بمكر أكبر منه وأحبسها في هذا المستطيل لتلتهمها لسعاتها عندما لا تجد أحدا تلسعه. أذكر لسعاتها ولا أذكر أسنانها ولا سيوفها ولا رماحها ولا أذكر شيئا مما يحدِّثني عنه. على كلٍّ، كان سؤالا وعليَّ أنه أجيب عليه. لا أدري لماذا جاءت ببالي صورة مارد قديم يسأل ثلاثة أسئلة وعليَّ أن أجيب عنها. لا أذكر بالضبط إن كان هذا المارد القديم هو الذي كان يجيب على الأسئلة أم هو الذي يطرحها. أحسستُ بأنني في وضع مقلوب: هو يسأل وأنا عليَّ أن أجيب. وأتذكر مرة أخرى برنامجا إذاعيا قديما: "أنت تسأل والكمبيوتر يجيب". وكان عليَّ أن أجيب وأنا لا أعرف إجابة ولا أتيقَّن من شيء. عادت إلى ذهني مرة أخرى فكرةُ كلامه المجازي. حاولتُ بما أمتلك من حاسة فنيَّة أن أكتشف المجاز في سؤاله، ولكنني أيضا في غمرة محاولاتي لاكتشاف مغزى سؤاله تاه عنِّي السؤال ذاته وكان عليَّ أن أجيب دون أن أعرف السؤال، دون أن أتيقَّن إجابةً. قلت له:

– أنا الذي تعرَّضتُ لها في البداية ثم هادنتُ معها إلى حين وعليَّ أن أخرج من هنا قبل أن تنتهي الهدنة.

ازدادت نظرته الماكرة واتسعت ابتسامته ووجدته يمدُّ لي يده. لم أكن أثق بالموقف كثيرا وكنت أخفي خوفي منه أو على الأقل خوفي من أن أفشل في الامتحان وأظل حبيس الماضي دون أن أتجاوز الباب القادم وأعبر إلى البداية عندما أعطيه ظهري بإذن الله. لم أُظْهِرْ شيئا وفي الوقت ذاته كان عليَّ أن أمدَّ يدي له.

لم أكن أعرف إن كانت مَدَّةُ يده مَدَّةٌ مجازية كأسئلته أم أنها مدَّة عادية لها الدلالة ذاتها التي كانت في عالمي قبل أن تتعطَّل تلك السيارة. قلتُ له وأنا أحاول أن أكثِّف كل براءتي في وجهي:

– يدي بها مرض جلدي وأخاف أن أنقله لك يا والدي.

دار فجأة وقبض قبضة سريعة من الهواء خلفه كأنه كان يرصُّ هذا الهواء ليستعمله فيما بعد، ونفثَ في يده على القبضة ثم فتحها فجأة وألقى بما لا أبصره في وجهي. أحسست بأن شعري انتصب وابيضَّ وأنني أريد أن أدفن نفسي في أي حفرة من تلك الحفر التي رأيتها تبتعد ورأيت المستطيل يدور حولي وتتسارع دوراته إلى أن يصير دائرة. فيدي وكل جسمي طفحتْ بها وبه أمراضٌ جلدية رأيتها من قبل وأمراض لم أرها و لم أقرأ عنها.

حاولتُ أن أنحني وأقبِّل يده اعتذارا أو إصلاحا لكذبتي التي يبدو أنها كانت مكشوفة تماما، لكن ما أزاد دهشتي أنني لم أره أمامي، ومع ذلك كان حاضرا، دون أن أراه، في كل شيء حولي. أحسسته يجلس على كل مقعد وينظر لي متوعِّدًا. رأيته في كل الأنياب التي تريد أن تصل إليَّ من كل هذي الأشجار. أبصرته حفرة تسير ورائي أينما أسير لتتصيَّد زلات قدمي وتبتلعني إلى الأبد. رأيته هواء قابلا للانفجار حولي. أحسست بحسرة. وأحسست بغبائي الشديد عندما رددت بكلامي السفيه على مدِّ يده لي. لكنه لم يكن أمامي مجالٌ للاعتذار و لم يكن أمامي مجالٌ للندم، فها هو الطَّفْحُ الجلدي الذي يجمع كل الألوان ما رأيته وما لم أره، ما أعرفه وما لا أعرفه – يجمعها كلها في جسمي.

تذكَّرتُ للمرة الأولى كرَّاسة الرسم وأنا طفل لا أعرف حتى كيف أمسك بقلم الألوان ورأيتُ صورا منها تحضر أمامي وأخذت أنقل النظر بينها وبين ألوان جلدي. كانت رسومات مدهشة رغم سذاجتها وكانت تحاول أن تقول شيئا. كنتُ كلما أمعنتُ في هذه الرسومات التي أراها لأول مرة منذ سنين جاوزت الثلاثين، أنكمشُ كأنني صرتُ أقصر مما أنا عليه وتخيلتُ نفسي قزما وتخيَّلتُ نظرات ترميني بالشفقة أو الاحتقار أو اللامبالاة كأنني غير موجود أمامها أصلا. تخيَّلتُ أشياء كثيرة، لكن جسمي كان ذا قدرة على التخيُّل أكثر مني، فها هو ينكمش إلى ما دون القزم. ووجدتُني أتشكَّل نابا لا أعرف فيما سيُستَخدَم. أحسستُ بأن عيني خرجتْ بعيدا عني وأخذت تتأملني ورأتني أتلوى وكأن النابَ نابٌ مطَّاطي، أخذتُ أتلوى وأزحف كالثعبان أو الدودة ووجدتني أخرج من جلدي ووجدتُ البُقَعَ والأمراضَ الجلدية والطفحَ يتعدون عني رويدا إلى أن تبتلعهم الحُفَرُ أو هم الذين ألقوا بأنفسهم فيها. رأيتُ المطاط يكتسب صلابة ورأيتُني أتمدد من جديد وإن صرتُ نحيلا و لم أجد كرشي أو بدانتي النسبية. أحسستُ بأنني صرتُ أطولَ بقليل من طولي الذي كنت أعرفه. ورأيت عينيَّ تنظران إلى المقاعد الرخامية في تحدٍّ وكانت يدي تمتد إلى جذوع أنياب الأشجار وتسحبها في عنف وتلقي بها في الحُفَرْ.

عندما ردمتُ سبع حفر بالأنياب وكدت أسقط في الحفرة الأولى من السباعية الثانية، تماسكتُ وأمسكت بجذع شجرة أذللتها، ورأيته من جديد يخرج من الهواء كأنه كان واقفا يراقبني دون أن أراه ووجدته يبتسم ويمد لي يده قائلا بلا مجاز:

- سلّم سلاما عاديا، فأهلا بك. سأصطحبك إلى الباب الذي نبحث عنه.

وبالرغم من أنني كنتُ أشعر أنه أكثر حكمة مني، رأيتُ في حرف "النون" في الفعل "نبحث" طريقا لا ينتهي كأن البحث مشروعٌ لا يكتمل أبدا أو إجابةٌ ما إن تصل إليها حتى تكتشف سؤالا جديدا. أحسستُ بألفة شديدة معه عندما أوْصَلَ لي أنه مازال على طريق البحث. تذكّرتُ أعضاء اللجنة وأجوبتهم اليابسة التي لا تستطيع أن تستوعب أسئلتي الصغيرة بُرْعُمًا قد يجعل أغصانهم تُورقُ من جديد. لم أغضب من صَلْبِهم لي على أعمدة أسئلتي، فلقد راودني شعور سرَّبه إليَّ الفعل "نبحث" بأنني ربما أستطيع أن أحتجز أعضاء اللجنة في هذا المستطيل لتحرقَ حرارةُ الرخام يُبوسَتَهم وتتركهم رمادا تتأفّفُ الرياح من أن تَزُورَهُ.

عندما وصلنا إلى الباب وعبرناه، توارب وراءنا بحيث لا يسمح لأحد أن يرجع منه. أحسستُ بأن هذي الفتحة خطوتي الماضية وأنني لا أستطيع أن أرجعها. فكل ما يمكنني أن أسترجعها وأتدبّر نَقَلاتي بين الحُفَرِ وخبطاتي على الشجرة وصدّي للأنياب التي كانت تلتهمني. ودون أن أنظر إلى الباب، سحبتُه لينغلق تماما ولا يستطيع أحد أن يفتحه من الداخل ليخرج منه. أحسستُ بقسوتي ورغبتي في إيقاع الألم بالأنياب والمقاعد الرخامية والحُفر وأعضاء اللجنة الذين أبصرتُهم مجازا أو حقيقة داخل هذا المستطيل. وفي الوقت ذاته شعرتُ بأن قسوتي وإحكامي غلق الباب سيطهّرانني إلى الأبد كأنني كنت أتخلّص من جميع الأشباح ولا أترك لها فرصة لأن تعاود الظهور على طريقي أو تكدّر صفاء رؤيتي التي بدأت تتضح نوعا.ما.

أفاقني من استغراقي في التفكير قائلا:

- أهلا على سكة السفر.

لاحظت أنه حذف "الواو"، فأحسستُ بأُلْفَة متزايدة معه وأن لغته اقتربت مني. دعاني لأن أنظر للوراء إلى الباب. قاومتُ عزيمتي على عدم النظر للوراء بارتياح أو بغضب، والتفتُّ محبّةً في هذا الرجل واستمرارا للألفة الآخذة في القوة. وجدتُ تمرتين كبيرتين على الباب كأنهما تنبتان من خَشَبِه. مد يديه وقطف واحدة. قبّلها وتشمّمها كأنه يحاول أن يصل إلى سرٍّ مكتوم في داخلها، ثم مسحها بردائه وقدّمها لي:

- انتفاخها هذا عصيرُ صَبْرِكَ على المستطيل. ولولا حِيَلِكَ وإدراكك لما يرقد داخلك لكنتَ تلاشيتَ في هذا المستطيل وكنتُ تركتُكَ تتوه هناك إلى الوقت الذي تتلاشى فيه الخضرة تماما.

تناولتُها منه والتساؤلاتُ لا تفارقني. أحسستُ بأن كل هذا ما هو إلا قصة تتشكّل على هواها في حلم أحلمه بعين مفتوحة وعين نائمة. قطع تساؤلاتي قائلا:

- أعصرها في فمك كي تكافئ جسمك على معاندة العطش.

أحسستُ بأن القصة تتحوّل إلى قصيدة، ففتحتُ فمي وأخذتُ أعصرها بتأنٍّ والتذاذٍ كأنني في حلم فعلا وأشكّل فيه حركاتي كما أشاء بلا ضابط ولا منطق سوى الإحساس بالسباحة في نيلٍ حرٍّ لا سبيل له لأن يجفّ أو يَسْرِقَ ماءَه أحدٌ.

عين أغمضها لأكتشف حلاوة البحث
وأخطّطَ لمشاريع يُكملُها التَّخيُّلُ

حين يمزج ما كان وما سيكون
ويُحمِّض أفلاما في ظلام العين
فتتضح الصورةُ
ويفيض النيلُ،
وعين أفتحها لأحرس المشاريعَ
ومسودَّاتِ الأمل
فلا يقربها نابٌ
ولا تحجرُ لجنةٌ على أسئلتها،
وما بين العينين
أنفٌ تستشرف روائح الغد
وتجريها رافدا يراقب لصوص "الأنيال"،
أنفٌ إذا ما استحكمتْ
ستبيدُ روائح تُنشي الغربان
فلا يبقى غرابٌ
ولا يبقى بَيْنٌ.

عندما نظرتُ بطرف عيني المفتوحة، وجدته يستمتع بثمرته ولا يشعر بأي شيء حوله. لا أدري لماذا تذكَّرتُ كلام زوجتي عندما قلتُ لها حازما:

– لم أعد أحتمل كل هذا الجبروت والخلل. سأضحِّي بنفسي في سبيل أمِّي.

وجدتها تنظر إليّ بتمعُّنٍ من وراء صفحة ماء عينيها:

– ومن لنا أنا وأطفالنا غيرك؟ إن كانت هي أمك، فهي أمي أيضا. وإن كانت هي أمك، فأنت أبونا وأمنا وكل الأقرباء. هل تعتقد أنهم سيتركونك أو يتركوننا بعدك؟

لم أستطع أن أردَّ عليها، ففي كلامها قدر من المنطق لا يمكن لأحد يحسُّ بالمسؤولية أن يتغاضى عنه. وفي الوقت ذاته كنت لا أستطيع أن أصل إلى صوت أمي. تنازعتني السُّبُلُ، ووجدتني أتخذ سبيلا وسطا، فركبتُ سيَّارتي.

وجدتُه يهزُّني كأنه ينبهني أو يحاول أن يفيقني من الاندماج بطعم تلك الثمرة التي استحضرتْ، ولو من زاوية بعيدة نوعا ما، الثمرة التي قدَّمها لي الغرابُ. نعم. كان غرابا، وكان يكلِّمني. بدأت الصورة تتضح أمامي الآن. الحمد لله. تنبَّهتُ إلى وجوده بجواري وهو يمسك ببذور الثمرة في يده. لكن منظر السيارة عاودني. رأيتها في الموضع الذي تعطَّلت فيه. لكنها لم تكن ساكنة. كانت تتحرك كأنها تدعوني للعودة. ورأيتها تتطاير في الهواء على البعد أمامي في موضعي أمام الباب. أحسستُ باهتزاز هاتفي في جيبي. استبشرتُ كثيرا. وجدتُ مكالمة فاتتني، مكالمة كأنها الحلم، فكود الرقم كان كودَ بلدي. طلبتُ الرقم. سمعتُ جرسا كان أشبه بلحن لم أسمعه من قبل. كانت موسقاه كخرير مياه النيل وهي تندفع على مهلٍ لتروي غيطا متعطِّشا للقاء المياه. ولكن أحدا لم يردّ على مكالمتي. وبالرغم من إحساسي باليأس قليلا، استبشرتُ، فعلى الأقل ها هو كود بلدي يتعرَّف عليه الهاتف من هذا المكان الذي أراه بكرا، خاصة بعد أن سرى عصير الثمرة في عروقي وأحسستُ أن طاقتي أكبر مما كنتُ أتخيَّل وأن بإمكاني أن أفعل الكثير.

استغللت هذه العمار الذي حلّ بالهاتف وطلبت زوجتي. وجدتها تستبشر بصوتي وتقول لي:

– كيف حال ماما الآن؟

– لم أصل إليها بعد. ولكنها ستكون بخير بإذن الله.

– أعرف أن بإمكانك أن تتصرّف بحكمة بالغة بل وبدهاء، لكن لا تتهوّرْ.

– لا تقلقي يا حبيبتي. بوسي الأطفال إلى أن نلتقي.

وبمجرد أن ذكرتُ اللقاء عاودتْ صورةُ السيارة الظهورَ أمام عينيّ. كانت تتنقل من مكان إلى آخر متقافزة كأنها كانت تريد أن تبرز لي دلالها فأذهب إليها. أحسستُ بأن قفزاتها غير طبيعية إلى حد ما، كأن "البوجيهات" في حاجة إلى تغيير أو كأن شيئا ما يسدُّ طرمبة البترين ويكاد الدفع على دوّاسة البترين يطرده لتنتظم حركتها.

هزّني مرة أخرى مبتسما وأشار إلى مقعد خشبي تحت شجرة ما لا أدري نوعها، لكنها كانت كثيفة الظل وكانت تسرّب ضوء الشمس من بين أغصانها كأنه يطلُّ ليلقي السلام ويختفي من جديد.

أشار بيده إلى المقعد وقال:

– فلنجلس قليلا.

جلستُ بجواره. حاولت أن أتفحّص المكان حولي. كانت هناك أشجار غريبة ووجوه تظهر على البعد كطيور تنبش الأرض. لفت انتباهي وعندما نظرتُ إليه، نظر في عينيّ وقال:

– ما رأيك في أن نوسّع الدائرة؟

– أي دائرة؟

– دائرة ما بيننا.

– هل ما بيننا خط مستقيم أم دائرة؟

– لا تنظر إلى الأمر من زاوية ضيّقة. وحاولْ أن تتخيّل نفسك عندما تتسع دائرة اللعب.

– هل كنتُ قطعةَ شطرنج تحرّكها أنت في الدائرة التي اخترعتَها؟

ردَّ عليَّ في هدوء كأنه يتكلّم بحميمية أو يقول كلاما عابرا في وسط السياق: "أنا لم أخترع الدائرة. أنا لم أخترع شيئا".

– ما ذلك اللعب إذن؟

– اللعب أن تمرح، أن تحدد خطوتك، أن تعمّر هذي الصحراء مثل كل تلك الوجوه التي تراها على البعد.

– هل هذي صحراء؟

– نعم.

– وما هذه الأشجار إذن؟

– الأشجار كالغمام تظلل عليك وتَعِدُكَ بثمار قد تفي بوعدها وقد لا تفي.

– سأسير معك إلى الباب كما يقول المثل.

– هو مَثَلُك. قل: سأسير معك إلى الصحراء.

– الباب أم الصحراء؟

– لا يهم.

– ففي عالم الحرف، هناك باب تركناه منذ خطوات. وهناك صحراء لم أرها أمامي، لكنك تقول بوجودها وأتذكّر صورتها عندما تعطّلت السيّارةُ.

– إذا نقلتَ قدمك بضعة خطوات، ستصل إلى مبتدأ الصحراء وتلتحم بكل تلك الوجوه.

– وأنت ألن تلتحم بها؟

– أنا معك، وسنكون سويا معهم. هيا فلنوسِّع الدائرة.

وبالرغم من اعتراضي المبدئي على كلمة الدائرة ومفهومها وعلى نقل الخطوات، أحسستُ من لغته أنه ربما يشير إلى توسيع نطاق الرؤية أو توسيع الأفق، فسايرته وبدأنا ننقل خطواتنا بعفوية. كنت أحس بالرمال تحت قدميّ وفي الوقت ذاته كنت أحس بالخضرة. لكنني لم أستطع أن أحدد إن كانت الخضرة تحت الرمال أم أنها فوقها.

تنبّهتُ على صوته الذي يدعوني لأن أفتح عينيَّ بعد أن ألْقَى السلامَ. أدركتُ أنني أغمضتُ عيني المفتوحة أيضا وأنني كنت أسير مغمض العينين

بالرغم من أنني كنت أرى كل شيء وكان إغماضهما لا يعوقني عن شيء، بل كانت رؤيتي أكثر صفاء.

فتحتُ عينيَّ فوجدتُ رَجُلين يمسكان بشيئين أشبه بالفأس التي كنت أستخدمها عندما كنت صغيرا وأنا أعمل في غيطنا. مددتُ يدي لأسلّم عليهما. وبالرغم من قِصَرِ السلام، عوضتْ ابتسامتُهما وترحيبهما بي الإحساسَ بالجفاء الذي قد يتبيّنه المرء من اللمسة العابرة التي حلّت محلّ السلام.

وحدته يعرّفني بنفسه كأنني أراه الآن لأول مرة و لم يمضِ بيننا وقتُ طويل ما بين باب الولوج وباب الخروج، قائلا:

– أنا إسماعيل.

وأشار بيده إلى الرجلين الآخرين قائلا:

– هذا ياسر وهذا أيوب.

كان ياسر ممتلئا نوعا ما، حليق الذقن وإن ترك بعض الشعيرات في أسفل ذقنه. أما أيوب، فكان نحيفا نوعا ما وكان طويلا. رحّبا بي من جديد وقالا لي في نَفَسٍ واحد:

– تخيّرْ فأسَكَ.

لم يكن هناك سوى فأسين في يديهما. وعندما تَبيّنَا ملامحَ الاستغراب على وجهي، أشارا إلى كومة أشياء بالقرب منهما. اقتربتُ من الكومة. حاولت أن أتفحّصها. رأيت ما فيها أشبه بالدُمى الصغيرة أو الألعاب والأشكال التي تقلّد أداة أو شكلا فعليا أكبر. قال لي هو الآخر:

- تخيَّر فأسك.

ربما لأنني تعوَّدت على قدر من الغرابة في الحوار من إسماعيل، مددتُ يدي وأمسكت بأحد هذي الأشكال. مد إسماعيلُ يده إلى فتحة جلبابه أعلى صدره وأخرج فأسا مثل التي يحملها ياسر وأيوب. قال لي:

- هيَّا نمِّ فأسك.

نظرت إليه متسائلا ومستغربا في الوقت ذاته، لكنه كرر عليَّ كلامه:

- هيا نمِّ فأسك.

لا حول ولا قوة إلا بالله. استعذتُ بالله من الشيطان الرجيم. وحاولتُ أن أتريَّث قليلا قبل أن أتكلَّم أو أتصرَّف، فلقد أحسست ساعتها بأن كل ما أراه وأسمعه مجرد طيف أو وهم أو حلم عابر وربما كنتُ نائما أو غافيا أو بين اليقظة والنوم. حاولتُ أن أربط بين النماء والإنماء والتنمية والنمو. هل تنمية الفأس تعني أن أجعلها فأسين أو ثلاث فؤوس؟ أم أنني أجعلها فأسا كبيرة؟ لم أستطع أن أتصوَّر فأسا جامدة صغيرة أو قصيرة تنمو وتصبح فأسا حيوية طويلة. وهل الفأس مهارة أو موهبة حتى أنمِّيها؟

نظر أيوب في عيني كثيرا قبل أن يهزَّني من كتفي، قائلا:

- ليس هذا وقت التأمل ولا وقت السكون. هيا دبَّ بفأسك في الرمال فتتدفق المياه وتخضرَّ الأرض وتنموَ فأسُكَ.

أدركتُ مدى شرودي وأحسست بصدق كلامه، فابتعدت عن المسارات التي يعزقانها بالفأس وبدأتُ أحفر. أحسست بأن حركة يدي ليست متناسبة مع تميُّز حركة الرمال، فكانت الفأس تحيد عن الموضع الذي

أتصوَّره وكانت تخدش الرمل دون أن تظهر مياه. نظرت إليهم، وجدتُ ثلاثتهم منهمكين في عَزْقِهم ورأيتُ المياة تتدفق وما إن تلمس الرمل حتى يخضرَّ. نظرتُ ورائي، فلم أجد ماءً ولا خضرةً ولا انتظامَ حركة على مسارب الرمل. استغربت أكثر عندما رأيت مياههم لا تصل إلى المسار الذي أعزقه بالرغم من أنه لا توجد حدود فاصلة أو أسوار بين مساراتنا. تراجعت إلى أن وصلتُ إلى الموضع الذي بدأتُ منه. نظرتُ إلى الفأس، فوجدتُها كَبُرت قليلا ونظرت إلى الأرض فرأيتها تبتسم. كانت تبتسم حقيقة لا مجازا. كانت شفتاها أقرب للهمس غير المسموع، لكنك تستطيع أن تتبين منه نظرة رضا. ولم أستطع أن أحدد إن كانت تبتسم للفأس أم تبتسم لي. لم أفكر في الأمر كثيرا، فالمهم في النهاية أنها تبتسم والأهم أنها لم تكن تبتسم عندما لمستْها يدي للمرة الأولى. بدأتُ في العزق. أحسستُ بأن يد الفأس أو ما لا أدري كيف أصفه: اليد هي التي يُفترض – حسبما كنتُ أدري – أنني أمسك بها ورأس الفأس هي التي تنغرس في التربة، لكنني كنتُ أرى يدها هي التي تلمس فم الرمال وأن يدها التي تشبه العصا الغليظة الطويلة ما هي إلا ذيل أو أرجل تتكئ عليها هذي اليد. أحسست بأن يد الفأس تضبط إيقاع حركتها على إيقاع ابتسامة الرمال وعندما لامستْ الرمالَ، بدأت المياه تتر. لم تخرجْ خُضْرَةٌ في البداية لكنني أحسستُ بتآلف مع الفأس وأحسستُ بأنني أنا والفأس بدأنا نتآلف مع الرمال، فرنَّ جرس الهاتف، واستطعتُ أن أسمع صوت أمي.

مايو-يوليو ٢٠١٠

أشباح وروائح

عُدْتُ على أثر المكالمات المتابعة التي كنتُ أتلقّاها كل ربع ساعة في اليوم الأخير. قطعتُ رحلتي وعدتُ. لم يستطع عقلي أن يستوعب سببا لكل ما تحمله هذه المكالمات المتدفقة كالسيل. لم أجد أحدا في استقبالي. حتى أنني عندما اتصلتُ قبل أن أركب الطائرة لم يرد أحد على أي هاتف. خرجتُ وأنا أحاول أن ألتمس أعذارا للجميع. حتى وإن كانت لهم أعذار، لم أجد أي عذر للخدم والموظفين والتابعين، فمن مهامهم الأساسية تلقي المكالمات، ولكن حتى الهواتف المحمولة لأهلي لم تكن تردُّ: فقط أصوات متواصلة إلى ما لا نهاية ولا صوت، ووسائل الإعلام لم تذكر شيئا عن أي خلل، فكانت كل الأمور وردية كالمعتاد إلى أن انقطع الإرسال وكأن بلدنا ما عادت موجودة على الخريطة.

تردَّد سائقُ التاكسي كثيرا قبل أن أُقنِعَه بإيصالي. قال لي: "لديّ أولاد أودُّ الرجوع إليهم". لم أفهم كلامه. كل العاملين تقريبا لديهم أولاد سيرجعون إليهم في نهاية اليوم. بحثتُ عن رقم وزير المواصلات واتصلتُ به: جرس متواصل سمعته نواحا. أحسستُ بأن الدنيا كلها توقفتْ، وكنتُ واقفا أنا أيضا، دون أن يبادر أحدُ التاكسيات ليتوقف لي. عدتُ مرة أخرى إلى ذلك السائق الذي كان يريد أن يرجع لأهله وكان يقف قبالتي من بعيد كأنه يتحداني بانتظاره لراكب آخر قد يجيء ويأخذ التاكسي مكاني. أحسستُ بأن كل سلطاتي تتوقف هي الأخرى دون سابق إنذار. فلم أجد أمامي إلا الرجاء:

– يا سيادة السائق، إن كنت أنت لديك أولاد تريد الرجوع إليهم، فأنا لا أعرف شيئا عما جرى لأهلي أصلا!

نظر إليّ نظرة فيها قدر من الشفقة وقدر من التشفّي و لم يتكلم. فقط حرَّك رمشه للوراء قليلا كأنه يشير إلى شنطة التاكسي. فهمتُ من حركته أنه رقَّ لي وأحس أنني غريب تائه. لكنه لم يخرج من التاكسي أو يبادر بمساعدتي في رفع حقيبتي. الحمد لله. على الأقل نصف العمى أفضل من العمى الكامل. تركني أضع حقيبتي في التاكسي دون أن يساعدني وانهمكَ في وضعِ كُمَامَةٍ على وجهه وأنفه. قلت لنفسي: "رأيت أناسا كثيرين في حياتي، لكنني لم أرَ كائنا بغرابة هذا السائق". لكنه على الأقل السائق الوحيد الذي تمكنتُ من إقناعه بإيصالي. ابتسمتُ ابتسامة ساخرة عندما دارت برأسي فكرة تمكُّني من إقناعه، فهو لم يقتنع أصلا ويبدو أنه أشفق عليَّ أو أحسَّ بضعفي الذي بدأ يتضاعف بمجرد أن ركبتُ التاكسي. أحسستُ بأشياء غريبة تدبُّ في قلبي الذي كاد يتوقف من هذه المواقف الغريبة، خاصة عندما قال السائق وهو يتحرك بي: "الأعمار بيد الله".

لا يمكن أن يُجمع كل السائقين على عدم إيصالي بهذه الطريقة إلا إذا كان هناك شيء غريب جدا قد حدث. وازداد شكي عندما عرَّفتُهم بنفسي و لم تتغير طريقة معاملتهم لي. كان مَنْ هُمْ أفضل منهم بكثير يتمنون أن يركعوا تحت أقدامنا قبل سفري. لكن يبدو الآن أن الطائرة نزلت على كوكب آخر، أو على الأقل في بلد أخرى غير بلدنا. تذكرت والدي وعائلتي وكل المكالمات التي انهالت عليّ قبل قراري المفاجئ بالعودة.

تذكرت الخلافات بين إخوتي على من يخلف أبي. تذكرت أنني سافرت مللا من خلافاتهم التي لا تنتهي. عندما تَنَبَّهْتُ إلى ما حولي، رأيت الشوارع كأنني أراها لأول مرة. كما أنني لم أتأفف من الوجوه التي أراها من شباك التاكسي، فاستغربتُ. شككتُ في أن إقامتي خارج البلد لفترة طويلة نوعا ما هي التي جعلتني أنظر إلى الأشياء حولي نظرة لم أعْتَدْ عليها هنا. لكنني قلت: "يبدو أن كُلَّ شيءٍ غريبٌ في هذا اليوم الغريب".

رفض سائقُ التاكسي أن يُكْمِلَ الطريقَ إلى القصر. وقف قبل حدود السور الخارجي بمسافة طويلة وقال لي بنبرة جادة وقلقة: "انزلْ هنا". فقلت له في ضجر: "كيف أنزل هنا والمسافة من السور إلى القصر وحدها عشرة كيلومترات؟" لكن نبرته كانت صارمة كما أنها اكتست بطبقة فزع رأيته حقيقيا في عينيه وأضاف قائلا: "عملتُ ما يمليه عليّ ضميري. لم أقصِّر معك، ويُفترض ألا تقصِّر معي. أولادي ينتظرونني". لم أستطع أن أتبين منه نوع التقصير الذي يتهمني به ولا حتى معنى انتظار الأولاد الذي كرره على مسامعي كثيرا. حتى أُجْرَتُهُ رفض أن يأخذها من يدي وطلب مني أن أضعها أمامه على التاكسي. تركني أنزل حقيبتي بمفردي قائلا: "لك الله ولي العودة حيا إلى أولادي". "لك الله"، كرَّرتُها كثيرا كأنني وجدت فيها قدرا من الاطمئنان. فلأول مرة يدعو لي بشيء ويتمنى لي خيرا كأنه صديق. ابتسمتُ في وجهه برغم ما يتضارب داخلي من أحاسيس وانفعالات. وعندما انصرفَ، وقفتُ أتأمل المنظرَ حولي حتى أستطيع أن أتبين معنى كل ما سمعتُه أو حَدَثَ حتى الآن. فزعتُ عندما أحسستُ بالوحشة والخوف في نفس الوقت، كأن السائق أنزلني في منطقة مهجورة وكل الكائنات تتربص بي من حولي. وبالرغم من أن المكان مكاني وأعرفه جيدا، لم أشعر بألفة معه، كأنه كان مكانا آخر، ولأول مرة أحسستُ بأن لهذا المكان روحا، روح قد تفارقه إذا حدث شيء ما، أو إذا تغيَّر اتجاه من يشغلون هذا المكان نحوك أو نحو بعضهم البعض. كان مكانا جديدا بالنسبة لي وغريبا في الوَقت ذاته، ولأول مرة أشعر بوحشة حقيقية فيه؛ صحيح أنني كنتُ أشعر بوحشة أحيانا عندما كان إخوتي يتشاجرون حول من سيخلف أبي، لكنها لم تكن وَحْشَةً دائمة، وكنتُ على الأقل أستطيع أن أخرج منها بالقراءة والاحتكاك بعوالم أخرى. وحتى القراءة تركتُها هناك ولم أُكمل رسالتي للدكتوراه برجوعي المفاجئ. لم أدرِ لماذا أحسستُ بأنني لن أستطيع السفر مرة أخرى لأكملها، وكأن كل تاريخي الشخصي والعائلي وكل تواريخي تلاشت للأبد وعليَّ أن أبدأ من جديد حياة لا أعرف عنها شيئا. أبصرتُ نذير شؤم في كل أفكاري وكأن التاكسي كان يدهسني تحت عجلاته ولم يستبقِ مني إلا هيكلا عظميا لا يملؤه شيء ويقف الآن في هذا العراء والخلاء والفضاء بلا مؤنس ولا تاريخ.

هممتُ أن أنادي على السائق ليرجعني إلى أي مكان، لكنه كان قد اختفى كأن الكائنات التي أحسستُ بها تسكن المكان ابتلعته. نظرتُ حولي من جديد ولم أتبين أي شيء يدل على الحياة التي تركتُها هنا قبل سفري. عاودني الشك في أنني قد أكون نزلتُ بمكانٍ شبيه بالمكان المحيط بقصرنا. ولم أستطع أن أُثْبِتَ شكِّي أو أنفيه. عندما أخبرتُ السائق به عَرَفَه على

الفور. ولكنني عندما نزلتُ من التاكسي أيضا لم أتعرّف عليه. وها هو الآن يلتفُّ حولي كفيلمِ رعبٍ لا ينتهي. لم أستطع حتى أن أحدِّدَ ما ينبغي أن أفعله، فرعبٌ أن أعود من ذلك الطريق ورعبٌ أن أواصل طريقي إلى القصر. توقفتُ قليلا لأستجمع أفكاري، وتركت حقيبتي في الخلاء، فلم أستطع أن أحملها وأحمل هواجسي في الوقت ذاته. قلت: "على الأقل إن واصلتُ السير نحو القصر سأتخذ سورا أحتمي به من أي شيء يهددني." ضحكتُ برغم بؤس حالتي، فالأشباح التي أحس بها الآن في كل شبر حولي لا تعترف بالأسوار. ومع ذلك قررتُ أن أواصل السير نحو القصر، فعلى الأقل سأعرف سر ما حدث. لابد أن عائلتي محتمية به، وهناك ما يحمينا من الجوع شهورا. لابد أن هذه الأشباح ستخاف حرّاس القصر ولن تقربه أو تقربنا، وإن اقتربت منه فسنجيء بشيوخنا ليحرقوها أو يصرفوها.

كانت أصوات الريح تنوح في أذني، كأنها تنعي كل خطوة أتقدم بها نحو القصر، أو تستعطف الأشباح كي تتركني، فعلى الأقل كان يكفيني ما أحس به من وحشة. وكنتُ أحس بأجساد تكاد تلامس جسدي، دون أن تلمسني. لو كانت لمستني لكنت تيقنت منها. لكنها ظلت تناوشني دون أن تحتكَّ بي، دون أن تبتعد، لتبقيني مهووسا بها إلى حد الهلع. ركّزتُ كل انتباهي في صوت خطواتي وواصلتُ السيرَ في حذرٍ كي لا أسمع صوتا آخر أو يُميتَني نُواحُ الريح. بدأتُ أقترب من السور. لكنه بالتأكيد لم يكن السور التي تركته قبل سفري. كان أشبه بسور وهمي مبني من الأشباح المتنافرة. أحسست بالتحدي. وكان عليّ أن أقبل التحدي بلا تردد، خاصة وأنني لم يكن أمامي سبيل غير ذلك.

مددتُ خطواتي للأمام وأنا أحاول أن أخفي خوفي وأسد أنفي. لم أجد أحدا يقف في الميدان أمام السور الخارجي لتقديم التماس أو طلب معونة أو صدقة. كنت من قبل أرى أجسادا بالآلاف تقف في الميدان دون أن نأبه بها، فإن كنا سمحنا لهم بالدخول — كما أكد أخي الأكبر ووزير الداخلية — أو استمعنا لأصواتهم، كانوا سينهبون القصر بالتأكيد ولا يبقون منه شيئا. ازداد فزعي عندما لم أجد أحدا بالميدان. وتمنيت حتى أن أجد شخصا واحدا يؤنسني ويؤكد لي أنني كنت أمام قصرنا. فالقصر فقد مهابته التي تحولت إلى شيء لم أستطعْ وَصْفَه لكنه كان يُرهبني، كان يغرس فيّ أحاسيسَ تَهِمُّ أن تقتلعني وتُلقي بي لأفواه الأشباح دون رحمة أو شفقة. اخترقتُ جموعَ الأشباح الصامتة إلى أن وصلت إلى بوابة القصر.

لم أرَ أحدا يحرس البوابة الخارجية. نظرتْ إليَّ البوابة ساخرة أو هازئة أو ضاحكة، لكنها كانت مواربة، تغريني بالدخول. تمكّنَ مني إحساسٌ عارمٌ بمقاومة هذا الإغراء، لكن إحساسا آخر قاوم الإحساس الأول وقادني من فتحة البوابة إلى داخل السور. أحسستُ به يستفرد بي، وقَوِيَ إحساسي عندما سمعتُ ارتطامَ البوابة كأن أحدا أغلقها خلفي. نظرت ورائي ولم أجد أحدا. "أهلا"، قلتها في خوف وسخرية، كأن كل إحساس من أحاسيسي قالها بطريقته. عندما جُلْتُ بنظري داخل السور، وجدتُ الصمتَ سيِّدَ المكان كأنه ابتلع كل أسياد هذا المكان واستحوذ عليه بدون منازع. كانت قصور الحاشية والوصيفات والخدم تصطف على الجانبين دون أن يبرز منها صوت أو تتعرف عليّ شجرة من الأشجار التي علت الآن قامتُها. أحسست

بأنني ممثلٌ تافهٌ في فيلم رعب أمريكي، ما أن يظهر على الشاشة حتى تفترسه الأشباح دون أن يعاود الظهور. أحسستُ فعلا برائحة الموت في أنفي. يبدو أن الأشباح سمعت فكرتي، فها أنا أتيقن من وجودها فوق الأشجار والقصور وأعمدة الإنارة وهي تخرج لي لسانها وأعضاءها وأسلحتها البيضاء. حاولتُ أن أختبئ في أي مكان لا توجد به أشباح، و لم أجد مكانا واحدا. فأخذت أهرول نحو القصر عل إحساسي بأني وسط عائلتي يبعد عنّي كل هذه الأشباح والروائح. تعثرت قدماي، لكنني لم أترك لهما فرصة ليوقعا بي في أيدي الأشباح، ونهضتُ بسرعة كي أجري نحو القصر. قطعتُ الكيلومترات كأنها أمتارٌ معدودةٌ ، فيبدو أن قدميّ ذاتهما رَكِبَهُما شبحٌ من هذه الأشباح كي يزيد وحشتي وخوفي. وجدت نفسي أقف فجأة كأن فراملَ ضغطتْ على عضلاتي وقدميّ.

رفعتُ عيني ووجدتُ باب القصر أمامي مغلقا. لم أرَ أحدا يقف ببوابته أو يرحب بي. عاودني الإحساس بأنني في مكان غير المكان. لكنني رأيت الزخارف ذاتها أمامي تندهني وتغويني بالدخول. تردَّدَتْ يداي في إخراج المفتاح من جيبي. استنبطتُ من تردُّدِهما أنه من الأفضل لي ألا أدخل القصر. وقفتُ، الأشباح من ورائي والخوف من أمامي، كأنني أحرقت كل سفني، وأحرقت معها أيضا أسلحتي. وكان عليّ أن أتقدم فقط بما تبقى فيّ من نبض وأحاسيس متضاربة. نظرتُ ورائي، فوجدت كل شيء يتربص بي، يحيط بي من كل جانب، و لم يتبق إلا جانب القصر، فقررت الدخول. على الأقل ما يربض فيه من رعب مجرد احتمال، وكل ما عداه رعب تيقنتْ منه

عيناي ونبهتني له أحاسيسي. قهرتُ حركة يدي وأخرجتُ مفتاحي من جيبي ووضعته في الباب. بينما كنتُ ألمس الباب أحسست بإحساس غريب لم أستطع تحديده. شعرت بأنني واقف على الأعتاب، في مفترق الطرق، لا إلى هنا ولا إلى هناك، فقط انجذاب عجيب كأنه الحنين، بالرغم من أنني لا أعرف الحنين ولا المواساة. أعدت النظر للوراء فازداد إحساسي بالرهبة والوحشة وجبروت المكان. كل ما أتذكره قبل سنتين أن هذه الأرض كانت عامرة، أنها كانت مليئة بالوجوه. لكنني لم أرَ وجها واحدا. وأخذت المشاعر المتضاربة تتسارع في دمي. وأحسست بأنني كل الانفعالات وكل الحالات.

أدرتُ المفتاح، وما إن انفتح الباب قليلا حتى أحسست بالانقباض وكأنني داخل إلى خرابة أو بيت مهجور. لم أدرِ ساعتها إن كان الحنين الذي فاجأني منذ دقائق زاد أم نقص. فقط كنت واثقا من أنني أمام لحظة فارقة في حياتي، ثقة لم أتبيَّنْ أُسُسَهَا أو معالمَها، و لم أستطع أن أُلِمَّ بكل المشاعر التي تعصف بي وتحوِّلني إلى لعبة بين يديّ داخلِ الباب وخارجه. إن دخلت منه هل سأخرج ثانية؟ أم أن الصراع الذي تركته بالداخل قبل سفري سيحبسني هناك للأبد لأصير شبحا لا يستطيع حتى أن يمرح بالإرهاب مع الأشباح التي تتجول بحرية خارج الباب؟ وإن أدرت له ظهري و لم أدخله، هل سأظل منفيا داخل السور الخارجي تتلاعب بي الأشباحُ والروائحُ والصورُ إلى أن تصيِّرني صدى تتناقله الريحُ دون أن تسمح له بالخروج خارج ذاك السور؟ مجرد أسئلة قليلة من فيض يتلاطم داخلي لم أستطعْ أن أُخرِجَهُ مرة واحدة.

وما إن انفتح جزء من الباب حتى أحسست بأيادٍ تتحرك في الهواء وتكاد تهوي على جسدي. فكّرتُ أن أتراجع للحظات. ولكن لم يكن أمامي إلا أن أطمئن على أهلي، أن أطمئن على نفسي، هل أنا بالداخل أم بالخارج؟ هل هذه الأشباح مجرد صدى لما يتلاطم داخلي أم أنها تتربص بي فعلا؟ هل هذا المكان مكاني أم أن سائق التاكسي اللعين نصب عليّ وتلاعب بي؟ لمستْ قدمي داخل القصر ويا ليتها كانت رجعتْ وكنت فقدتُ البصر قبل أن ألج ذلك الباب!

وجدت جثثا متناثرة بعشوائية كأنها تلقائية. أحسست برائحة الموت تنتشر في كل مكان. سارعتُ الخطى إلى كل الغرف لأجد باقي أهلي راقدين ميتين في أسرّتهم أو على كراسيِّهم أو خلف مكاتبهم دون أن أبصر قطرة دم واحدة. لم أدرِ ماذا أفعل و لم أجد من أتحدث إليه. وأخذت أهرول في أنحاء القصر وفنائه وحدائقه وكأنني أبحث عن نفسي وأكلم نفسي ووجدت روائح تطاردني وتحتل أنفي دون أن تفارقني، دون أن أستطيع أن أجد لها تفسيرا يقنعني. وعندما كادت الرائحة تفتك بي، انفلتُّ من باب القصر وأنا أتحامل على الآلام التي ظهرت فجأة في جسدي والهرش الذي ظهر في جلدي وبدأ ينادي يدي للاحتكاك به وتمزيقه. استرجعتُ وجهَ أبي الذي رأيتُه منذ لحظات ميّتا في القصر والخدوش التي رأيتها عليه، قلت: "ربما ما أشعر به الآن هو ما شعر به أبي وجعله يحك وجهه إلى أن مات". فازداد خوفي وانتشرت روائح الموت في كل مكان حولي ورأيت أشباحا تطاردني وأخذت أجري على غير هدى عليّ أرى أحد أستفسر منه أو يخبرني اليقين.

تكاثفت الأشباحُ حولي والتفّتْ الروائحُ حول أنفي. كدت أسقط وكادت الأشباح والروائح تدهسني وتصيِّرني رائحة لاهثة في أرجاء القصر كأنها شاهد إثبات أو شاهد قبر. لكنني راوغتُها أو راوغتُ نفسي الأمّارة بقتلي وأخذتُ أجري في حديقة القصر. كانت الأشجار تصرخ وأنا أنفلتُ من بينها، ولَم أتبيَّن إن كان صراخها تعاطفا أم رثاء أم سخرية. حاولت أن أقفز من السور لألقي بنفسي خارج هذا القصر بأكمله، وكان السور عنيدا عاليا شاهقا كأنه يتحداني. لعنتُ المهندسَ اللعين الذي اقترح أن تكون أسوار القصر شاهقة كي لا يتسلّل منها أحدٌ للداخل ويستولي عليه أو يقتل بعض من بداخله. استدركتُ لعنةً حاولتْ أن تنفلت من لساني وتنصبَّ على أبي ذاته الذي راقت له فكرة التّحصين والاحتماء بسور لا يستطيع أحدٌ أن يَقْرَبَهُ. كنتُ كفأرٍ صغير تتكالب عليه القطط الشبحيَّة دون أن تترك له فرصة لالتقاط أنفاسه. يبدو أن الذعر ولّد فيّ إحساسا بالقوة والثبات لم أتبينه من قبل. فأخذت أجري وأسابق الأشباح والروائح في بطولة حسدت نفسي عليها. لم أعبأ بلهاثي بالرغم من طول المسافة، و لم أستطع أن أجد مفتاحا لأي سيارة من السيارات الرابضة أمام القصر. كما أنني خشيتُ إن ركبتُ إحداها أن تحيط بي الروائح والأشباح من كل جانب فتخنقني أو تخربش وجهي إلى أن أموت كمن ماتوا في القصر، دون أن أعرف شيئا عما حدث لهم جميعا. وعندما انفلتُّ من بوابة القصر الخارجية وجريت نحو الجهة الأخرى التي لم أفكر يوما بالمرور بها، قلّت الروائحُ قليلا وتناقص عددُ الأشباح. فيبدو أنها كانت لا تألف الهواء المنطلق وسط الحقول ولا الشمس

الخارقة التي تلهب رأسي الآن وكأنها تنقرها إلى أن تصفّيها قطرةً قطرةً خليّةً خليّةً وأصيرأنا شبحا يجري في الخلاء وسط الحقول المترامية بلا هدف إلى أن يجد أحدا يطارده. كانت الأشباح تقف وأنا أجري كالمجنون وسط الحقول لتتفرج عليّ وتضحك ساخرة ويتردد صدى ضحكاتها في أذني إلى أن يسقطني على وجهي فأغفو.

رأيتُ في منامي مجاري من الدم تسيل كأنها تروي كل الحقوق. ورأيت وجوها غاضبة وعروقا نافرة وفؤوسا تهوي على القصر لتزرع أرضه أشجارا معمَّرة ومحاصيلَ تُطعم الأفواهَ. رأيت أناسا يتقاسمون المحاصيل ورأيت عجوزا يأكله شاب في مقتبل العمر. وسرعان ما تبدل المنظر ورأيت ماكينات في المصانع وعربات تحمل ما تنتجه هذه المصانع ليصل إلى كل شبر من الأرض المترامية التي لم أكن أعرف عنها شيئا حتى حدود الجبال البعيدة. رأيت أعلاما ترفرف وأصواتا تتظاهر، فوقفت في منامي لأتفرج على هذا المنظر الغريب الذي لم أره في حياتي إلا بالخارج قبل رجوعي. أحسستُ بالنشوة أو الخوف أو أن الأشباح التي كانت تطاردني رأيتها في هذه الأصوات. وسرعان ما رجعتْ مجاري الدماء كما كانت تفيض كأنها طوفان يغرق كل شيء. تعجّبتُ عندما رأيتُ الأشجار وكل النباتات تنبت من هذه الدماء كأنها شريان الحياة. وعندما رفعت رأسي لأشرب من الدماء وجدت حجرا يرجمني من يدٍ بَرَزَتْ من وسط هذه الأصوات فَصَحَوْتُ من منامي فَزِعًا وأنا أضع يدي على قلبي وأغمض عيني كي لا أفتحهما وأرى ما رأيته في منامي حقيقة متجسِّدة أمام عيني. أحسست بخفة وطأة الأشباح وأن روائح الموت

التي كانت تطاردني قابلت روائح الخضرة و لم تستطع أن تصمد كثيرا أمامها، فتحسَّسْتُ نبتا كان يمتد عند أطراف أصابعي وقبَّلتُ أنفاسي الهادئة التي عادت إليّ.

عندما بدأت أذني تلتقط أصواتا هنا وهناك، تذكرت كلمات أبي عن الرعاع الذين يتربصون بالقصر في كل أوان ليستولوا عليه. وساعتها أدركت أنني في خطر. فتحت عيني سريعا كي أحاول أن أفعل شيئا أقاوم به الأيادي التي قد تفتك بي. نهضتُ ووقفت أجول بنظري لأستكشف المكان. لم أرَ رمالا كنت أجري وسطها عندما كانت تطاردني الأشباح. وجدت أرضا خضراء، وكانت الخضرة تمتد حولي في كل مكان. ووجدت الأرض مليئة بوجوه أذكرها وفي الوقت ذاته لم أستطع أن أحدد هوية هذي الوجوه بالضبط. فكل ما أذكره أنها كانت وجوها موجودة كأنها بعض قطع الديكور في قصرنا. ظننت أنهم سيهللون لرؤيتي وينصِّبوني أميرا عليهم إلى أن نعيد بناء المملكة. لكنهم عندما رأوني بادروني بكلام غريب متضاحكين: "أمازلت حيا؟" فقلت لهم على الفور: "وما الذي يدعوني لأن أموت الآن". خطر في بالي أنهم هم الذين تسبَّبوا في كل ما جرى في القصر وفكّرتُ أن أبادئهم بالهجوم. لكنهم كرروا سؤالهم دون أن ينتظروا أن أكمل كلامي: "أمازلت حيا؟" قلت لهم: "من أنتم حتى تتكلموا معي بهذه الطريقة". قالوا: "نحن نحن" وكرروا عليّ السؤال: "أمازلت حيا؟"

عندما تبيَّنْتُ غرابة الموقف كله، بدأتُ أشكُّ في أنهم أشباح اتخذوا صورة أخرى غير الأشباح التي كانت تطاردني. وعندما لمحوا في عينيّ نظرة

شكٌ وتساؤلٍ وحيرةٍ، قالوا لي في نَفَسٍ واحد: "تعالَ اعملْ بِلُقْمَتِكَ". لم أفهم كلامهم. ما علاقة العمل بلقمتي وما علاقة ذهابي إليهم بكل هذا؟ لم أستطع أن أفسر هذا الطلب الغريب. لكنهم لم يمهلوني التفكير في العلاقات بين مفردات كلامهم. فهمتُ أن كلامهم تفسير عندما قالوا: "إذا لم تعمل ستموت جوعا وعليك أن تقرر مصيرك. لن يضغط عليك أحد. إما أن تعمل أو تسرق أو تأكلك الذئاب. وإن سرقتَ تعبَنا وشقاءَنا سنأكلك بأسناننا". دارت كل الأمور في رأسي مرة واحدة. أأرجع إلى ذلك القصر لتسكنني الأشباح أو تأكلني أو تمص دمي؟ وربما أجد القصر ذاته شبحا كأنه لم يكن. أم أنني أذهب للذئاب لتأكلني؟ وهذا مصيرٌ لا يقلُّ رعبا عن المصير الأول. وإما أن أسرق كي لا أموت جوعا. لكنهم قالوا إنني إن سرقت سيأكلونني. وأنا لا أستبعد حتى الآن أنهم أشباح مثل الذئب الذي ينقضُّ في الفيلم ومثل أشباح القصر. لم يتبقَّ أمامي إلا احتمال واحد: أن أعمل كما يقولون. لكن ما العمل؟ وهل أعمل معهم هم؟ استدركتُ: حتى وإن كانوا أشباحا كما أظن، لم يبدر منهم، على الأقل حتى الآن، ضرر أو إرهاب. فلأظل معهم إلى أن أتدبَّرَ أمري. ومددتُ لهم يدا مترددة قائلا لهم: "ولكنني لا أعرف ما العمل". فقالوا في نَفَسٍ واحد وابتسامة أحسستُها صادقة و لم أرها منذ زمن بعيد: "سنعلِّمُك". ومدوا لي أياديهم مرحبين كأنهم يرونني لأول مرة. فواصلتُ خطواتي إليهم وأنا أحسُّ بأنني في مأمنٍ من أشباحِ القصر وروائحِه.

٢٣-٢٨ ديسمبر ٢٠٠٩

الكتابة والوعي

د . محمود الضبع

تطرح مجموعة الطريق إلى الميدان العديد من المداخل القرائية التي يمكن اعتمادها والسير في مسارها للتعامل مع نصوصها القصصية، بعض هذه القراءات ينتمي إلى الجماليات التي يصنعها النص، وبعضها الآخر ينتمي إلى اشتباكها مع الواقع الاجتماعي والسياسي والفكري ورصد تحولات القيم والتقاليد، وما يرتبط بها من فساد يتعلق بعضه بالسلطة على تراتب مستوياتها، ويتعلق بعضه الآخر بالممارسات الإنسانية الفردية التي تأتي بوصفها نتيجة طبيعية للفساد العام في المجتمعات العربية.

رصد الواقع الاجتماعي وتحولات القيم:

تأتي الكثير من قصص المجموعة في سياق رصد الواقع الاجتماعي المهترئ ليس بحثا عن أسبابه، وإنما تصوير ما آلت إليه من تشويه للإنسانية والانحراف بها إلى مسارات تكشف أبعاد عرقلة مسيرة الإبداع العربي وتوقف ركبها الحضاري، ووئد مشروعها الثقافي الذي كان من المفترض له تبعاً لقانون الطبيعة أن يسير إلى الأمام لا أن يتراجع إلى الخلف.

وتأتي في هذا الإطار قصص، منها "جهاز مسح الرأس"، و"احتمالات الملك والكتابة"، و"سأركب دماغي"، و"تجديد الثقة"، و"امتداد"، وغيرها.

تصور قصة "جهاز مسح الرأس" موقف جهاز أمن الدولة مع المثقفين والمفكرين وممارساته القمعية التي تنطلق من وعيها بخطورة الفكر على نظام الدولة، وسعيها الدائم إلى منع التعبير عن الرأي، وكبت الحريات، وتجهيل

البشر، بما يعمل في نهاية الأمر لصالح إحكام قبضة النظام الحاكم على الدولة.

وتعتمد القصة منذ بدايتها على المفارقة المشهدية باستخدام السخرية المريرة ، حيث تصور مشهد جمع من البشر تطرح عليهم أسئلة تتعلق بالوعي الثقافي، غير أن من يجيب عن سؤال يتم عرضه في الحال على جهاز مسح الرأس لمحو المعلومات من دماغه، ثم تؤخذ بطاقته الإلكترونية لسحب مبلغ ألف جنيه منها، فإذا كان الرصيد غير كاف، فعليه أن يكمل دينه بوضع خطوط حمراء على أسطر عدد من الكتب المنشورة.

وتأتي المفارقة الثانية عندما يتعرض بطل القصة (القاص / السارد) لهذا الموقف فيكتشف أن الكتب المطلوب مسحها منها كتاب له، وثلاثة أخرى لأصدقائه.

عندما اندمجتُ في الإجابة بناء على خبرتي وقراءاتي، سحبني مختصو الجهاز إلى صالة الحَجْرِ الرئيسية وأوقفوني أمام جهاز مَسْحِ الرَّأسِ. لفّوا شريطا أشْبَهَ بشريط جهاز قياس ضغط الدَّم حول رأسي، ثم أدخلوا بعض البيانات على الجهاز لم أتمكن من التقاط شيئا منها، إذ يبدو أن إدخال هذه البيانات صار روتينا بالنسبة لهم. تَوَرَّدَتْ خدودُهم عندما ظهرتْ نتيجةُ المسح على الشاشة لتقول إن درجة حرارة ذكائي ٣٩ درجة. سحبوا بطاقة الصرف الآلي من جيبي وأدخلوها في فتحة أخرى بنفس الجهاز ليسحبوا منها ألف جنيه. الغريب أنهم يعرفون دائما كلمة السر بالرغم من أنني أغيرها كثيرا. ازداد تورُّدُ خدودهم عندما لم يجدوا في رصيدي ما يكفي. اقتادوني إلى قاعة المطبعة الرئيسية لأقضي بما لم يتبقَّ من رصيدي في

الرقابة على أربعة كتب بمعدّل مائة جنيه للكتاب. وكان عليّ أن أملأ الكتب بالخطوط الحمراء، فإن لم يجدوا هذه الخطوط الحمراء تملأ كتابا سأكون مدينا بألف جنيه مقابل كل كتاب. وكانت صدمتي لا حد لها عندما وجدتُ الكتب عبارة عن كتاب لي وثلاثة كتب لأصدقائي.

على هذا النحو تستمر القصة في الانتقال من مفارقة إلى أخرى أكثر عمقا بما يكشف عن ممارسات وألاعيب هذا الجهاز (جهاز أمن الدولة)، وفرضه الرقابة على الناس وبخاصة المفكرين منهم، وتصور مأساة المثقف المبدع العربي مع السلطة الحاكمة التي تقدر تماما قيمة الثقافة ولكنها تسعى دوما لفرض هيمنتها عليها وقمعها ، وبالتالي قمع كل من يمارس دورا ثقافيا.

وتأتي قصة "احتمالات الملك والكتابة"، في السياق ذاته، إذ تكشف عن وجه آخر من وجوه ممارسة جهاز أمن الدولة مع المثقفين، حيث تبدأ بتصوير مشهد تحقيق لشاعر يجلس أمام محقق في أمن الدولة، بعد تقديم بلاغ من مجهول ضد كتاباته الإبداعية:

مَلَلْتُ ومَلّ. لم يستطعْ المحقّقُ إلا أن يحصلَ على الكلمات المطبوعة في ديواني، و لم أستطعْ أن أقلّلَ غباءَه ليقرأ كلماتي بعيون غير عيون محاكم التفتيش التي تلقّت بلاغا من أحدهم ضدي. عندما بلغ به المللُ مداه، توقّفَ قليلا وهو يَشْرُدُ في اتجاه بعيدا عنّي، ثم استدار والتفتَ إليّ فجأة قائلا: "دعنا نتسلى قليلا". وأخرج عملة معدنية من جيبه، قائلا: "مَلِكٌ أم كِتَابَة؟". وبما أنني استغربتُ موقفه، أخذتُ أفكّرُ في سؤاله وما يقصده بهذا اللعب المفاجئ. تدبرتُ كلمات سؤاله، وشعرتُ بحيرة بالغة، إذ أنني أمام

خيارين لا يقلُّ أحدُهما صعوبة عن الآخر: إن اخترتُ المَلِكَ خسرتُ قضيتي وخسرت نفسي أمام نفسي، وإن اخترت الكتابة خسرت قضية أخرى لكنني على الأقل سأكون صادقا مع نفسي. "ملكٌ أم كتابة؟" استغربت صيغة السؤال من جديد، فمن جهة هو "يرفع" الملك و"يجُرُّ" الكتابة. نظرت إلى صورة السيد الرئيس خلفه في تمعُّن، وهي صورة أُخذت له قديما في شبابه، ثم استجمعتُ جرأةً حاول أن يسرِّبها من أعضائي طوال كل هذه الساعات من التحقيق، ونظرتُ إليه دون أن أَخفضَ عينيَّ وأجبرتُه حرجا أو ضيقا أو تأففا على أن يُخفِضَ عينيه، ثم قلتُ له: "كتابةٌ".

وتنشغل القصة بالتركيز على الثقافة وقياس خطورتها على أجهزة الأمن في واقع السياسة العربية، وشعور هذه الأجهزة بخطورة المثقفين وأصحاب العقول ، وسعيهم الدائم نحو السيطرة على أي فكر ومحو معالمه والتنكيل بأصحابه.

تبدو القصة كما لو كانت وصفا لشوط من أشواط مباراة ذهنية بين لاعبين كلاهما يعرف هدفه (رجل الشرطة ممثل الملك ، والمبدع ممثل الكتابة)، وكلاهما يعرف أهداف منافسه، وكلاهما يتبنى قضية ويؤمن بها، رجل الأمن يرى ضرورة سيطرته على الفكر من منظور الوطنية والدفاع عن بلده ضد أي معتد أو مخرب، والمثقف يؤمن بقضايا حرية الفكر والإبداع، وضرورة تخليص الوطن من هؤلاء المجرمين الذين يعملون لصالح أباطرة ومصاصي دماء الشعب ويستعبدونه لصالح أهوائهم الخاصة.

ويتنامى الصراع في إطار ثنائية الملك والكتابة، بين ممثل الملك وممثل الكتابة ليصل إلى منتهاه في التبشير بإمكانية احتمال تبادل الأدوار، وهو ما

يقرره ممثل الكتابة عله يطلق الشاعر الكامن داخل ممثل الملك، في إشارة للتأكيد على فتح باب احتمالات الإمكانات المتعددة التي يمكن أن تطرحها الثقافة في وعي الإنسان عموما.

وتعالج قصة "سأركب دماغي" الفساد من منظور آخر ، حيث تشير إلى فساد لجان التحكيم في المؤسسات الثقافية ، وفساد اللجان العلمية، من خلال عرض فساد لجنة ترقية الأساتذة الجامعيين، فاللجنة بعد أن تعمدت رسوبه في حصوله على ترقية علمية ، يطلبه أحدهم للقاء خاص في فندق، ويتحدث معه مباشرة في عدم اعتماد اللجنة على كفاءة الأبحاث وجودتها ، وإنما على معيار آخر، يكشف عنه السرد في القصة:

تجرَّعَ جرعة من كاسه وقضم ورقة خسٍّ ثم ركَّز عينيه على وجهي وهو يمد يده ويلعب بالإبهام والسبَّابة سويا كأنه يطلب مني مالا:

- لا يهم أن تكتب شيئا. سأتكلم معك بكل صراحة، المهم كم ستدفع
- أدفع؟!
- نعم. أتحسب أن هناك أحدا فارغا ليقرأ أبحاثك الكثيرة الصفحات وحُجَجَكَ المرهقة؟
- كنت أظن ذلك (راسما ملامح انكسار على وجهي).
- (أمسك بالكأس ورفعه أمام عينيه كمن يتأمله) إن بعض الظن إثم.
- ونِعْمَ بالله! (قلتُها على الفور).

فابتسم ابتسامة لم أستطع أن أحدد كل أبعادها. لكنني تركته يكمل كاسه إلى آخره وأنا ألوذ بصمتي متأملا. بادرته بالسؤال: "وماذا عن الأبحاث التي سأترقى بها؟". وسَّع ابتسامته ومد لي يده ببعض الأوراق.

تصفّحتُها ووجدت أنها عرض سريع لأفكار قديمة وعادية ومكررة. كل خمس أوراق تقريبا عن موضوع ما لا ترقى حتى أن تكون خطة بحث لموضوع. نصحني أن أنشر ما قال عنه أنه أربعة أبحاث وقال إنه سيساعدني في نشرها بمجلات الجامعات الرئيسية بالعاصمة، فهذه الأبحاث ستعود إليه هو شخصيا ليحكّمها، كما أنه عرض عليَّ بأنه سيعفيني من تعبِ الذهاب بها إلى هذه المجلات وسيأخذها بنفسه إليها بعد أن يكتب عنها تقريره بصلاحية نشرها.

يعتمد المشهد مفارقة الحالة ومفارقة الرؤية، إذ ينبني على التضاد بين حالتين ينتمي كل منهما إلى وعي، ويصلان إلى نتيجة واحدة ، هي تأكيد تغلغل الفساد في كافة أشكال الحياة، حتى ما لا ينبغي له أن يكون فاسدا، وهو الحياة العلمية والبحث العلمي، الحالة الأولى تصور الباحث ووعيه بجدية البحث العلمي وإيمانه بأن التميز والنجاح للجودة ، والحالة الثانية تصور الأستاذ الفاسد، الذي يبحث عن التكسب غير المشروع، ويسقط كل معايير الجودة ، ويعتمد الفساد معيارا نهائيا، وبين الحالتين يأتي الكشف عن واقع الحياة العربية، وحالة المشهد الثقافي والعلمي الذي يعاني ممارسات تبشر بمستقبل غير مشرق نتيجة للفساد العام.

وفي السياق ذاته – سياق الفساد – تأتي قصة "امتداد" لتحكي عن فساد السلطة وجبروتها من خلال الحديث عن ممارسات أمن الدولة وغياب الزوج على أيديهم، وإلى الفساد المهيمن على النشر في المؤسسات الحكومية الثقافية بما يجعلها توصد في وجه المبدعين الذين لا يملكون حيلة غير شرعية

لكي تطبع أعمالهم، وذلك كله على الرغم من أن القصة تكتب في سياق رحلة إلى الدير (مكان التطهر).

أنتبهُ على صوت الراهبة وهي تحدثنا عن أنواع الزرع في الدير بالتفصيل وكيف أنها حياة موازية ولكنها لا تبتغي إلا وجه الرب الذي قال: "أعطوهم أنتم ليأكلوا ... إنني أشفق على الجميع" و"كل من سألك فأعطه". وأخذتْ تتكلم عن صحراء مصر وسِيَرِ الراهبات والرهبان فيها وقصة بهاء طاهر "أنا الملك جئت" ورواية "السيميائي" لباولو كويليو. توقعتُ أن تحكي عن "خالتي صفية والدير" لبهاء طاهر أيضا، لكنها تتحدث عن "المَلِك الذي سيجيء" وكأنها تتحدث عن قصة لزوجي قد أستطيع أن أنشرها قريبا إذا توفّر لديّ المال لطباعتها على حسابي، فسلاسل الهيئات الحكومية إما أن يظل كتابك في أدراجها حتى يضيع أو أنها تنشر للمقرّبين وغير المغضوب عليهم.

على هذا النحو تستمر القصة في الانتقال من مفارقة إلى أخرى أكثر عمقا بما يكشف عن ممارسات وألاعيب هذا الجهاز (جهاز أمن الدولة)، وفرضه الرقابة على الناس وبخاصة المفكرين منهم.

الوعي المعرفي واستشراف أفق المستقبل:

تشتبك بعض القصص مع الأنساق المعرفية والتراث المعرفي القديم والمعاصر، وتقدم من خلالها قراءة واعية لعقل نقدي يطرح أفكاره حول هذه المعرفة ويمررها للمتلقي في إطار مراوغة تستهدف تمرير الوعي إلى عقله، وتعمل على تفكيك مرتكزاته الفكرية، وقناعاته التقليدية، وتأتي في هذا السياق قصص، منها: "مفتاح ".

تصور قصة "مفتاح" مشهد مثقف يستأجر مسكنا في أحد الأحياء الفقيرة بالقرب من جامعة القاهرة، ويصف ظلامه الدامس، والخيالات التي تعتمل في عقله حيال ذلك، والأفكار التي تحضر مشتبكة مع العالم الخارجي السياسي والاجتماعي والفكري، كما لو كانت القصة تقيم مقابلة بين ما هو داخل العقل العربي، وما هو خارجه في الواقع الفعلي، وهو ما تكشف عنه جملة ترد على لسان السارد، يقول:

أقولها بعد أن أُقنعَ نفسي بأن الباب الوحيد الذي يوصلني للخارج قد سُدّ في ظهري للأبد وعليّ أن أتقدم لأستكشف بقايا حياة تصلح لأن أسكن بها وسط هذه الدار. كلمات لا أذكر قائلها تعاود الوميض على صفحة رأسي:

- نظريات المؤامرة كامنة في "الدي ان ايه" الثقافي للمسلمين.

لا أدري ما علاقتها أساسا ولماذا تَهبطُ عليّ الآن دون سابق إنذار كأنها زائرُ فجرٍ وقحٌ لا يراعي خصوصية أو سَكِينَة.

وتحيل القصة إلى نقد العقل العربي في كثير من المواضع، من خلال الكشف عن قراءة العقلية العربية للأحداث العالمية والتحركات السياسية والأفكار الثقافية ، وما يؤول إليه ذلك جميعه من تكوين أفكار مغلوطة عن الحياة بوجه عام.

وعلى المقابل تماما تأتي قصة "أشباح وروائح" لتستشرف أفق المستقبل من خلال التنبؤ بانهيار نظام الحكم، وسقوط الحكومة، وهو ما حدث بالفعل بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير في مصر، من خلال الحكي عن عودة ابن الرئيس من سفره، وما يكشف عنه الحكي منذ خروجه من المطار،

وحتى وصوله القصر، وبحثه عن أهله، وانتهاء بانضمامه لجموع الشعب والعمل معهم وتحت إمرتهم.

لم يتبقَ أمامي إلا احتمال واحد: أن أعمل كما يقولون. لكن ما العمل؟ وهل أعمل معهم هم؟ استدركتُ: حتى وإن كانوا أشباحا كما أظن، لم يبدر منهم، على الأقل حتى الآن، ضرر أو إرهاب. فلأظل معهم إلى أن أتدبَّرَ أمري. ومددتُ لهم يدا مترددة قائلا لهم: "ولكنني لا أعرف ما العمل". فقالوا في نَفَسٍ واحد وابتسامة أحسستُها صادقة و لم أرها منذ زمن بعيد: "سنعلّمُك". ومدوا لي أياديهم مرحبين كأنهم يرونني لأول مرة. فواصلتُ خطواتي إليهم وأنا أحسُّ بأنني في مأمنٍ من أشباحِ القصر وروائحِه.

السرد القصصي والانفتاح الروائي:

تأتي كثير من القصص متجاوزة حدود السرد القصصي في اعتماده التكثيف والاختزال، ليس فقط بالمقابلة مع المفهوم الكلاسيكي للقصة في تصويرها للحظة أو مشهد، وليس فقط اعتمادا على عمق الفكرة وإمكانات اتساعها، وإنما هنا بالاعتماد على تصوير عالم روائي منفتح يحتمل العديد من التفصيلات في بناء قصصي مختزل، وهو ما تجسده قصة "امتداد " التي تحيل إلى عالم روائي على أكثر من مستوى، وبخاصة فيما يتعلق بالحدث، واتساع زمن الحكي، والإحالة إلى المسرود عنه الغائب.

تبدأ القصة بالحكي عن رحلة إلى الدير، وتصوير مظاهر الحياة في طريق يوحي بمشهد الريف ولا يغفل الإشارة إلى العلاقة المتوترة بين الشرطة والشعب:

غابت الترعة وغابت الفتاة التي تغسل شعرها عن عيوننا: ربما كان رجال الشرطة اقتادوها معهم. جفت أغنية السلام من على شفاهنا. حاولنا أن نبلل ألسنتنا بالماء. كان يبدو علينا أننا سافرنا آلاف الأميال، بالرغم من أن عدّاد سرعة السيارة لم يُظهِر إلا آلافا قليلة من الأمتار.

ثم ينفرد صوت الزّوجة (الشخصية الساردة) ليحكي عن غياب الزوج المعتقل، ويمزج بين صوت الزوجة، وصوت الزوج، بالإحالة إلى أحداث تمت الإشارة إليها في قصص سابقة، منها قصة "سأركب دماغي" وما عرضت له من فساد لجان التحكيم والترقية، وبعضها يحيل إلى كتابات روائية شهيرة، منها "اللجنة" لصنع الله إبراهيم، ويتدخل صوت سردي ثالث هو صوت الراهبة التي ستمثل امتداد للزوج والزوجة:

نسأل الراهبة عن سبب بناء الدير بعيدا عن تلك القرى، فتقول لنا: "نبتعد عن الحياة لنزرع الحياة". وعندما تظهر على وجوهنا علامات حيرة قد تشي بطلبنا التوضيح تستطرد قائلة: "الطريق إلى الحياة ليس سهلا كما يتصوره البعض. على المرء أن يسلك كل تلك الطريق ليصل إلى هنا. الطريق في حق ذاتها ذات معنى ...

حيث يختلط الفلسفي مع الديني مع الاجتماعي، وتتكشف روح التسامح والقواسم الإنسانية المشتركة، خارج حدود الدين وبعيدا عن هيمنته ، حيث لا يتخلى أحد عن طقوسه وعقيدته، ولكنه لا ينفي على الآخر أيضا عقيدته ولا طقوسه الدينية.

وفي هذا التقاطع تحديدا يأتي الامتداد، بين البشر، وبين المعاناة الإنسانية، إذ تكشف القصة عن حركة سردية ثالثة تكون الراهبة بطلتها، إذ

هي في الأساس مناضلة سياسية كانت متزاملة مع الزوج المعتقل للزوجة البطلة الساردة، وأنها هربت إلى الدير حيث لا تمتد يد السلطة والمعتقلات، وهنا يكون الامتداد الثاني من جملة الامتدادات التي تؤسس لها القصة.

ومن هنا تكتسب القصة اتساعا غير محدود لبنية سردية منفتحة على حدود الروائي وليست متوقفة فقط عند حدود السرد القصصي، وهو ما يؤكده اختزال وتكثيف الأحداث والتاريخ الذي تشير إلى القصة أو تتداوله عبر حركاتها السردية.

السرد الشعري وسرد الذات:

لا تكاد تخلو قصة من قصص المجموعة من سرد للذات على نحو شعري، يبدو كما لو كان نصا غنائيا بالمفهوم الكلاسيكي، حيث كان يتغنى الشاعر بآلامه وآماله، ويعبر عن علاقته بالكون وبالموجودات من حوله، ويتمثل فلسفة الزمان وحاضره ومستقبله .... وهنا تسعى القصة لخلق أوهام شعرية ويظهر فعل الكتابة فيها قلقا على الدوام , فعلا مساويا للفجيعة ومعوضا لها فى آن. ومن ثم فإن عالم السرد في القصص لا يحيل على وقائع فنية لها بعد يتصل بمجرد رصد الواقع الاجتماعي فحسب، وإنما يستعين بالإنشاء الشعري ويغوص فى خلفيات هذا الواقع محللا ومنتقدا ومناقشا، معتمدا في ذلك آليات شعرية متنوعة، منها: التعدد الدلالي، وهدم البناء الزمني على النحو التراتبي، والاختزال والتكثيف، سواء على مستوى البناء اللغوي، أم على مستوى بنية الأحداث واختزال الكثير منها ربما بكلمة واحدة تختصر مساحات زمنية ووحدات سردية عديدة.

تأتي في هذا السياق قصة "طقوس العبور"، التي تصور رحلة عبور سريالية لشخص تعطلت سيارته في الصحراء، وتعطلت معها كل أدوات ووسائل الاتصال بما فيها هاتفه المحمول، وهنا يبدأ الحكي محتملا للعديد من التأويلات، ففعل الكتابة ذاته ينبني في سياق الإيهام بتعدد الدلالة، ويعلن عن هذا الوهم للمتلقي:

ووجدتني أكمل طريقي. تذكّرتُ أنني كنت قد جئتُ بحثا عن الماء وأنني استمعت إلى نصيحة صوت ما، وفكرت في العودة، لكنني تذكرت أيضا أنني ليس لي مكان أعود إليه، فلا التل مكاني ولا السيارة بمأمن لي وسط كل تلك الرمال والتلال والرياح العاوية، فعلى الأقل هنا توجد وجوه تنظر إليّ نظرة أليفة كأنها تعرفني. استغربتُ من مقارنتي بين هنا وهناك بالرغم من أنهما امتداد واحد من الصحراء الفسيحة المفتوحة.

وتستمر القصة في هذا الجو السريالي لتحيل إلى تأويلات متعددة لا يدري المتلقي هل تحكي عن رحلة أخروية، أم عن رحلة تيه لشخص أصابته شمس الصحراء فاختلطت عليه الأحوال وتداخلت في رأسه الخيالات، أم عن عالم واقعي يعيش دوما حولنا ولا نراه، وهو ما تشير إليه بعض الوحدات السردية:

واصلت خطواتي. بدأت الدنيا تسودُّ فجأة وبدأت النسمات الخفيفة تتمرَّد. ووجدت نسمات لافحة حارقة تصفعني على وجهي. انتهى طريق الماء تماما، ووجدت نفسي أدلف من باب انغلق بإحكام خلفي. لا مياه، لا وجوه، لا طيور. كل ما كان هناك عبارة عن مقاعد رخامية جلستُ على أحدها، فأحسستُ بأنها عينُ موقدٍ وأنني وجبة شهية لأحد يتلاعب هنا

بالنار ويُبعد المياه والوجود ويستوطن الأرض بالخراب والرخام الحارق. وجدت الجالون الذي في يدي بدأ ينكمش ويتكرمش وسرعان ما ذاب تماما ووجدتُ الماء تبخَّر كأنه لم يكن.

وتأتي في السياق ذاته قصة "أشباح وروائح" التي تتداخل فيها الأبعاد السريالية مع تقنية الأحلام على طريقة "رأيت فيما يرى النائم" مع إمكانات تعدد التأويل الدلالي لموضوع القصة ذاته في إشارة إلى التنبؤ المستقبلي لانهيار نظام الحكم في مصر، من خلال شخصية ابن الزعيم القادم من سفره البعيد عائدا إلى القصر، غير أنه يجده خاويا على عروشه، ويلتحم مع طبقات الشعب التي تجبره على الحياة بنظامها هي، وما يكتنف سياق القصة من أجواء الرعب والخوف، والإحالات الدلالية التي ترد على لسان الشخصيات، والتي تحتمل التأويلات المتعددة ، وهي سمة شعرية في الأساس:

تردَّد سائقُ التاكسي كثيرا قبل أن أُقْنِعَه بإيصالي. قال لي: "لديّ أولاد أودُّ الرجوع إليهم". لم أفهم كلامه. كل العاملين تقريبا لديهم أولاد سيرجعون إليهم في نهاية اليوم. بحثتُ عن رقم وزير المواصلات واتصلتُ به: جرس متواصل سمعته نواحا. أحسستُ بأن الدنيا كلها توقفتْ، وكنتُ واقفا أنا أيضا، دون أن يبادر أحدُ التاكسيات ليتوقف لي. عدتُ مرة أخرى إلى ذلك السائق الذي كان يريد أن يرجع لأهله وكان يقف قبالتي من بعيد كأنه يتحداني بانتظاره لراكب آخر قد يجيء ويأخذ التاكسي مكاني. أحسستُ بأن كل سلطاتي تتوقف هي الأخرى دون سابق إنذار. فلم أجد أمامي إلا الرجاء:

– يا سيادة السائق، إن كنت أنت لديك أولاد تريد الرجوع إليهم، فأنا لا أعرف شيئا عما جرى لأهلي أصلا!

نظر إليَّ نظرة فيها قدر من الشفقة وقدر من التشفّي و لم يتكلم. فقط حرَّك رمشه للوراء قليلا كأنه يشير إلى شنطة التاكسي. فهمتُ من حركته أنه رقَّ لي وأحس أنني غريب تائه. لكنه لم يخرج من التاكسي أو يبادر بمساعدتي في رفع حقيبتي.

تعتمد المجموعة جملة من الجماليات التي تمزج بين الأنواع الأدبية وبخاصة السردي والشعري منها،

المفارقة السردية والمفارقة الشعرية:

تعتمد مجموعة الطريق إلى الميدان عددا من المفارقات السردية والشعرية، منها مفارقة الحالة والمفارقة المشهدية، والمفارقة الدلالية، وغيرها من المفارقات التي تعد في الأساس سمة شعرية وسعت منها شعرية الحداثة وما بعدها، ومن ثم فإن استخدامها في البناء السردي يحيل السرد إلى الشعري على نحو متسع، ففي قصة "امتداد" تتشكل عدة مفارقات، إحداها مفارقة الحالة بين الحياة داخل الدير والحياة خارجه، ليست المفارقة الناتجة عن عزلة الدير، ولكنها الناتجة عن تشابه الآلام المشترك بين من يعيشون خارج الدير، ومن يعيشون داخله.

تميل عليّ راهبة وتسألني: "كيف حال الحياة بالخارج؟" فأرد عليها: "الحياة هي الحياة، فيها وفيها". يبدو أن إجابتي لا تقنعها أو أنها كانت تنتظر مني ردا مختلفا. تنظر إلى جسدي، ثم ترفع عينيها إلى وجهي، ثم

تصمت، ربما لتتدبر كلامي. تعاود السؤال بطريقة أخرى: "كيف حالك أنت؟". أتحسس جسدي، لأتأكد من وجود بصمات قديمة ولكنها لم تفارقني أبدا، فأدرك مدى البتر. أتذكر لجنة الترقيات وأمن الدولة وزوجي الذي لم أره منذ سنين، وأكرر نفس الإجابة. وأجدها تخرج مني محمّلة بالمرارة أو الحزن أو الحنين، لا أدري، لكنني أحسها مختلفة تماما عن الإجابة السابقة بالرغم من أن الكلمات لم تتغير وكذلك الصياغة. وأجدها تربت على يدي في تفهّم وكأنها تحسّ بما أحسّ به ولكن لأسباب مختلفة. تغيم عيناها وكأنها موجودة في مكان آخر، ثم تقول: "كان السرب في عوننا جميعا".

عن المؤلف

ولد جمال محمد عبد الرؤوف محمد الجزيري في ٢ أغسطس ١٩٧٣ في جهينة، محافظة سوهاج، مصر. كاتب قصة وشاعر ومترجم ومسرحي وناقد ودكتور جامعي. تخرج في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب بسوهاج ١٩٩٥. حصل على الماجستير من قسم اللغة الإنجليزية بآداب القاهرة ١٩٩٨عن رسالة بعنوان "تحولات المنظور في شعر روى فولر١٩٣٦ – ١٩٦١"، ثم على الدكتوراه من قسم اللغة الإنجليزية بآداب عين شمس عام ٢٠٠٢ عن رسالة بعنوان "جوانب السرد في شعر روجر ماكجوف ١٩٦٧ – ١٩٨٧". يعمل منذ عام ١٩٩٩ بقسم اللغة الإنجليزية بكلية التربية بالسويس ومنذ ٢٠٠٥ بقسم اللغة الإنجليزية بكلية المعلمين (الآداب حاليا) بجامعة طيبة بالمدينة المنورة.

elgezeery@yahoo.com،elgezeery@gmail.com

جوائز

* المركز الأول في القصة القصيرة من جامعة جنوب الوادي (جامعة سوهاج حاليا) ١٩٩٥
* المركز الثالث في القصة القصيرة، المسابقة المركزية لهيئة قصور الثقافة ١٩٩٦ – ١٩٩٧ عن مجموعة بعنوان أساطير.
* المركز الثالث في النقد الأدبي، المسابقة المركزية لهيئة قصور الثقافة ١٩٩٩ – ٢٠٠٠ ، عن دراسة بعنوان الرؤية الحضارية للإبداع عند شكري عياد.
* جائزة ناجي نعمان الأدبية لعام ٢٠٠٩ (جوائز الإبداع) عن ديوان شعر بعنوان وطن بطعم الأسئلة.
* جائزة الدكتور عبد الغفار مكتوي من اتحاد كتاب مصر عن مجموعة غلق المعابر ٢٠١٠
* وسام التميُّز من الدرجة الأولى في القصة القصيرة في العالم العربي لعام ٢٠١٠ عن المجلس العالمي للصحافة عن قصة بعنوان "الرنيس الجديد".

إصدارات

(١) قصص قصيرة

١ - فتافيت الصورة. القاهرة: الهيئة العامة للثقافة [ثقافة القاهرة]، ٢٠٠١.
٢ - بدايات قلقة. الكتاب الأول. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤.
٣ - نقوش على صفحة النهر. القاهرة: دار التلاقي للكتاب، ٢٠٠٩.

٤ - غلق المعابر. القاهرة: دار التلاقي للكتاب، ٢٠١٠.
٥ - رائحة مأتم. القاهرة: دار التلاقي للكتاب، ٢٠١٠.
٦ - اشتعال الأسئلة الخضراء القاهرة: دار التلاقي للكتاب، ٢٠١١
٧ – الطريق إلى الميدان: دار التلاقي للكتاب، ٢٠١١

(٢) شعر

١ - لا تنتظر أحدا يا سيد القصيد. القاهرة: دار التلاقي للكتاب، ٢٠٠٩.
٢ - حفل توقيع. القاهرة: دار التلاقي للكتاب، ٢٠١٠.
٣ - ونظل على الإشراق. القاهرة: دار التلاقي للكتاب،٢٠١٠.
٤ - أصوات نهر قديم. القاهرة: دار التلاقي للكتاب، ٢٠١٠.
٥ - خارطة المطر. القاهرة: دار التلاقي للكتاب، ٢٠١٠.
٦ - أسفار سيدة النهر. القاهرة: دار التلاقي للكتاب، ٢٠١١.
٧ - بنت النهار. القاهرة: دار التلاقي للكتاب، ٢٠١١.
٨ - ميدان المرايا. القاهرة: دار التلاقي للكتاب، ٢٠١١.

(٣) دراسات نقدية

١ - الحوار مع النص: جماعة بدايات القرن نموذجاً . القاهرة: جماعة بدايات القرن، ٢٠٠٢.
٢ - "أنسنة السرد: قراءة في سر الأسرار لمحمد حسن عبد الله". محمد حسن عبد الله : دراسة وتكريم، تحرير د.مصطفي الضبع. جامعة القاهرة. كلية دار العلوم بالفيوم، ٢٠٠١. ص ٢١٠-٢٤١.
٣- "مشروعية دراسة عتبات النص: قراءة في روح أبيض لزاهر الغازياى". المؤتمر الأول لأدباء القاهرة، ٢٠ – ٢٢ فبراير ١٩٩٩, كتاب الأبحاث: الأدب والمستقبل. ص ١١٥-١٣٧.
٤ - " الشعر البديل: قراءة في أشعار من قنا". مؤتمر قنا الأدبي الثاني.١٦ – ١٨ يناير ٢٠٠٠، الخطاب الشفاهي والفعل الإبداعي بقنا. ص ٩٦-١٢٤.
٥- "مقدمة المراجع". دراسة عن الشاعر الأمريكي تشارلز سيميك. تشارلز سيميك. فندق الأرق. ترجمة أحمد شافعي. مراجعة وتصدير جمال الجزيري. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤. سلسلة المشروع القومي للترجمة (٦٣٩). ص ٩-١٧.
٦- "تقديم المراجع: الشعراء الأفارقة الأمريكان والبحث عن صوت شعري". وجه أمريكا الأسود وجه أمريكا الجميل: مختارات من الشعر الأفروأمريكي. ترجمة أحمد شافعي. مراجعة جمال الجزيري. القاهرة:

المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥. سلسلة المشروع القومي للترجمة (٨٢٣). ص ١٣-٤٧.

٧- "تقديم المراجع: رواية السيد: نصوص متقاطعة مفعمة بالرمزية". ثريا أنطونيوس. السيد: رواية. ترجمة جمال الجزيري ومحمود حسب النبي. مراجعة جمال الجزيري. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٦. سلسلة المشروع القومي للترجمة (١٠١٥). ص ٥-١٦.

٨- "شكري عياد وتطبيع النص الأرسطي في الثقافة العربية"، أخبار الأدب. الأحد ٧ مايو ٢٠٠٦. ص ٣١.

٩- "شكري عياد والحداثة" (مجلة جسور، العدد ١٩، السنة الثانية، سبتمبر أيلول ٢٠٠٦، باب الأدب والفن).

١٠- "البطل من الأسطورة إلى الأدب عند شكري عياد" (مجلة الرافد، عدد ١٠٩، سبتمبر ٢٠٠٦). ص ٦٣-٧٠

١١- "تداخل الأصوات وتفكيك الأيديولوجية في قصيدة "متى يأتي الجيش العربي؟" للشاعر السمّاح عبد الله". مجلة إبداع. العدد السادس عشر خريف ٢٠١٠.

١٢- عرض نقدي للمجلد الثامن من موسوعة كمبردج للنقد الأدبي ، نشر بمجلة إبداع، العددان السابع والثامن، ٢٠٠٨.

١٣- "عدسة الحياة المسرحية: رؤية العالم المسرحية في مونودراما " السيد تمام". نجاح عبد النور. السيد تمام. القاهرة، دار التلاقي للكتاب، ٢٠٠٩. ص ٣٧-٦٧.

١٤- الإبداع والحضارة عند شكري عياد. القاهرة: دار التلاقي، ٢٠١٠.

(٤) ترجمة

١- مقالة مترجمة بعنوان "العنوان: مكانه وزمانه، مرسله ومستقبله". تأليف جيرار جينيت. مجلة تواصل. الهيئة العامة لقصور الثقافة، فرع ثقافة القاهرة. عدد فبراير ١٩٩٩. (ص ٣٦-٤٥)

٢- مقالة مترجمة بعنوان "وظائف العنوان". تأليف جيرار جينيت. مجلة تواصل. الهيئة العامة لقصور الثقافة فرع ثقافة القاهرة.عدد يونيو ١٩٩٩.ص٣٩-٥٠.

٣- أسطورة بروميثوس في الأدبين الإنجليزي والفرنسي. تأليف لويس عوض. الجزء الأول. ترجمة جمال الجزيري وبهاء جاهين وإيزابيل كمال. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١. سلسلة المشروع القومي للترجمة (العدد ٣٠٠).

٤- أسطورة بروميثوس في الأدبين الإنجليزي والفرنسي. تأليف لويس عوض. الجزء الثاني. ترجمة محمد الجندي وجمال الجزيري. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١. سلسلة المشروع القومي للترجمة. (العدد ٣٠١).

٥- أقدم لك..الذهن والمخ. تأليف أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت. ترجمة جمال الجزيري. مراجعة إمام عبد الفتاح إمام. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١. سلسلة المشروع القومي للترجمة (العدد ٣٠٩).

٦- سحر مصر للرحالة الإنجليز. تأليف رشاد رشدي. ترجمة جمال الجزيري. مراجعة فاطمة موسى. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢. سلسلة المشروع القومي للترجمة (العدد ٣٤٦).

٧- أقدم لك ... كافكا. تأليف ديفيد زين ميروتس وروبرت كرومب. ترجمة جمال الجزيري. مراجعة إمام عبد الفتاح إمام. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣. سلسلة المشروع القومي للترجمة (العدد ٥٢٧).

٨- أقدم لك... تروتسكي والماركسية. تأليف طارق علي وفيل إيفانز. ترجمة جمال الجزيري. مراجعة إمام عبد الفتاح إمام. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣. سلسلة المشروع القومي للترجمة (العدد ٥٢٨).

٩- أقدم لك ... فرويد. تأليف رتشارد ابيجنانس وأوسكار زاريت. ترجمة جمال الجزيري. مراجعة إمام عبد الفتاح إمام. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣. سلسلة المشروع القومي للترجمة (العدد ٥٧٣).

١٠- أقدم لك... بارت. تأليف فيليب توديوآن كورس. ترجمة جمال الجزيري. مراجعة إمام عبد الفتاح إمام. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣. سلسلة المشروع القومي للترجمة (العدد ٥٤٧).

١١- اليهودية أيديولوجية قاتلة: التاريخ اليهودي وسطوة ثلاث آلاف سنة. تأليف إسرائيل شاحاك. ترجمة جمال الجزيري. مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام. القاهرة: الإعلامية للنشر، ٢٠٠٣.

١٢- أقدم لك... علم العلامات. تأليف بول كوبلي وليتسا جانز. ترجمة جمال الجزيري. مراجعة إمام عبد الفتاح إمام. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥. سلسلة المشروع القومي للترجمة (العدد ٥٤٩).

١٣- أقدم لك ... الحركة النسوية. تأليف سوزان ألس واتكنز ومريزا رويدا ومارتا رودريجوز. ترجمة جمال الجزيري. مراجعة إمام عبد الفتاح إمام. مراجعة علمية شيرين أبو النجا. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥. سلسلة المشروع القومي للترجمة (العدد ٤٤٩).

١٤- أقدم لك ... ما بعد الحركة النسوية. تأليف صوفيا فوكا وريبيكا رايت. ترجمة جمال الجزيري. مراجعة إمام عبد الفتاح إمام. مراجعة علمية شيرين أبو النجا. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥. سلسلة المشروع القومي للترجمة (العدد ٤٥٠).

١٥- أقدم لك ... القتل الجماعي (المحرقة). تأليف حاييم برشيت وستيوارت هوود وليتسا جانز. ترجمةجمال الجزيري. مراجعة إمام عبد الفتاح إمام. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥. سلسلة المشروع القومي للترجمة (العدد ٦٩٣).

١٦- أقدم لك ... التحليل النفسي. تأليف إيفان وارد وأوسكار زاريت. ترجمة جمال الجزيري. مراجعة إمام عبد الفتاح إمام. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥. سلسلة المشروع القومي للترجمة (العدد ٦٩٩).

١٧- أقدم لك ... النظرية النقدية. تأليف ستيوارت سيم وبورين فان لوون. ترجمة جمال الجزيري. مراجعة إمام عبد الفتاح إمام. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥. سلسلة المشروع القومي للترجمة (العدد ٨٣٩).

١٨- "تنمية المواهب في التعليم". مجلة المعرفة. السعودية. عدد يوليو ٢٠٠٦ (ص٩٤-٩٧).

١٩- موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي. الجزء الرابع: القرن الثامن عشر. المجلد الأول. تحرير: هـ. ب. نسبت وكلود راوسون. المشرف العام جابر عصفور. مراجعة وإشراف فاطمة موسى. ترجمة جمال الجزيري ومحمد الجندي وشكري مجاهد. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٦. سلسلة المشروع القومي للترجمة (عدد ٩١٨).

٢٠- السيد: رواية. تأليف ثريا أنطونيوس. ترجمة جمال الجزيري ومحمود حسب النبي. مراجعة جمال الجزيري. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٦. سلسلة المشروع القومي للترجمة (عدد ١٠١٥).

٢١- موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي. الجزء الثامن: من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية. تحرير: رامان سلدن. المشرف العام جابر عصفور. مراجعة وإشراف ماري تريز عبد المسيح. ترجمة أمل قارئ وجمال الجزيري وحسام نايل وخيري دومة وعادل مصطفى ومحمد بريري ومحمد سعيد القن ويمنى طريف الخولي. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٦. سلسلة المشروع القومي للترجمة (عدد ١٠٤٥).

٢٢- معجم دراسات الترجمة. تأليف مارك شتلويرث وموبرا كووي. ترجمة جمال الجزيري. القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٧. سلسلة المشروع القومي للترجمة (العدد ١١٥٢).

(٥) مراجعة ترجمة

١- فندق الأرق. ديوان شعر. تأليف تشارلز سيميك. ترجمة أحمد شافعي. مراجعة وتصدير جمال الجزيري. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤. سلسلة المشروع القومي للترجمة (العدد ٦٣٩).

٢- وجه أمريكا الأسود وجه أمريكا الجميل: مختارات من الشعر الأفروأمريكي. ترجمة أحمد شافعي. مراجعة وتقديم جمال الجزيري. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥. سلسلة المشروع القومي للترجمة (العدد ٨٢٣).

(٦) دراسات أكاديمية باللغة الإنجليزية

1- Shifting Perspectives in Roy Fuller's Collected Poems 1936-1961. Unpublished M. A. thesis. Cairo University, Faculty of Arts, English Department, 1998.

2- Narrative Aspects in Roger McGough's Poetry 1967-1987. Unpublished Ph.D dissertation. Ain Shams University, Faculty of Arts, English Department, 2002.

3- "Thanatography in Stevie Smith's Poetry". Faculty of Arts Journal, Menoufia University. Vol. 68 (January 2007): 23-66.

4- "Fluid Identity of the Daughter in Jackie Kay's Adoption Papers". Faculty of Arts Journal, Menoufia University. Vol. 69 (February 2007): 1-28.

5- "The Motif of Shapeshifting in Jo Shapcott's Her Book". Fikr Wa Ibda' No. 42 (September 2007): 27-61.

6- "Revising Fairytale Discourse in Carol An Duffy's Little Red Cap". Fikr Wa Ibda' No. 45 (May 2008): 1-71.

7- "Human Objectification in Carol Ann Duffy's The World's Wife". Fikr Wa Ibda' No. 47 (September 2008): 225-284.

طُرُقٌ تصبُّ في الميدان